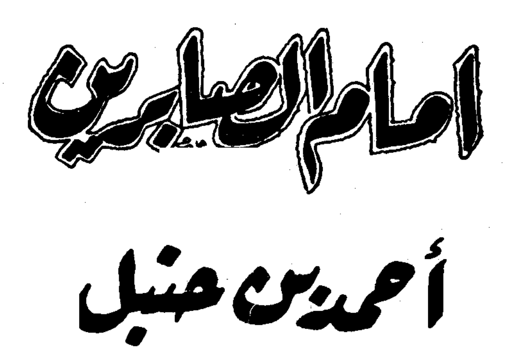
المكتبة الصغيرة

٣٣



عبد العزيز المسند

الطبعة الثانية

ربيع الأول ١٤٠٢هـ

يناير ١٩٨٢م

الغلاف والعناوين من اعداد

الفنان السعودي

حمد كليب الحـارثي

كلمات عن الامام

« ما أعلم أحـدأ يحفظ على هذه الأمة أمر دينهـا الا شاباً بالمشرق هو أحمد بن حنبل .. »

أبو مسهر

« أحمد بن حنبل هو الامام البارع المجمع على جلالته وامامته وورعه وزهادته وحفظه ووفور علمه » .

الامام النووي

« قيل لبشر الحافى .. لو قمت فتكلمت كما تكلم أحمد فقال : « لا أقوى عليه . ان أحمد قد قام فى ذلك مقام الأنبياء . »

الامام الشافعي

« ان الله عز وجل ـ أيد هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردة ... وبعمر بن عبد العزيز يوم رد المظالم ... وباحمد بن حنبل يوم المحنة » .

علي بن المدينى

خــير البرية بعد صحب محمــــد

والتـــــابعين ، امام كل موحـــد

ذو العلم والراي الأصيل ومن حوى

شرفا عــــلا فــوق السما والفرقد

أبو الخطاب الكلوذانى

أضحى ابن حنبـــــل محنة مامونة

وبحب أحمـــــد يعــرف المتنسك'

واذا رأيت لأحمــــــد متنقصـــــا

فاعـــلم بأن ســـتوره ستهتك'

ابن أعين

■□■

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تربطني بالأستاذ الأديب (عبد العزيز الرفاعى) روابط قوية ، كلها فى العلم والثقافة . كان أولها عندما كنت طالبا فى (كلية الشريعة والدراسات الاسلامية) ـ بمكة المكرمة ـ . وكانت (البلاد السعودية) اذ ذاك تصدر فى مكة ـ فعملت فى صيف أحد الأعوام مصححا في الجريدة ـ وكان الأستاذ عبد العزيز أحد المشرفين المسئولين عن (البلاد) الجريدة ، وأحد كتابها ومحرريها . عرفته هناك حيث البساطة واليسر فى مكان ضيق فى أول (الشامية) حول مطبعة بدائية تصدر عنها ـ الجريدة ـ التى يرأسها الأستاذ (عبد الله عريف) ويقوم بسكرتاريتها الأستاذ (عبد العزيز ساب) .

ثم انطوى الزمن سريعا ، وجمعتنا أيضا الصلة العلمية حيث عملت أنا والأستاذ عبد العزيز الرفاعى فى (اللجنة الفرعية لسياسة التعليم) سنوات كانت كلها علما وأدبا وروحا طيبة صافية ..

ومرت فترة من الزمن والتقينا معا للثقافة والأدب حينما أعلنت (مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر) عن مسابقة

ثقافيـة دعي لتحضـيرها نخبة من العلماء والأدباء . ففي اول اجتماع للجنـة اهداني الأستاذ عبد العزيز أحد كتب (المـكتبة الصغيرة) وهو (الامام الشـافعي ـ الفقيه الأديب) للأسـتاذ الأديب (أحمد العربى) . وما ان تصفحت بعض صفحاته حتى نبذ الي الأستاذ عبد العزيز وريقة يقترح عليّ فيها أن أكتب عن الامام أحمد ، فرددتها على الفور موقعـا أسفلها بالموافقـة والترحيب ..

وعلى بركة الله بدأت :

فكان أول عمل بدأت به قراءة كتاب السيد أحمد العربى عن الامام الشافعي ثم جمعت ما وجد فى مكتبتى من كتب تتحدث عن الامام أحمد واستعرت ما تيسر من بعض المكتبات وبدأت أقرأ ... والحق أننى استفدت واطلعت على أشياء كثيرة لم أكن أعرفها من قبل ـ وهذه من فوائد البحث والتاليف ...

ومن يتحدث عن الامام أحمد لا يحتـاج الى تعريف أو تعليل أو بيان الأسباب ولكنى أثبت فى مقدمة الحديث عنه ما يلي :

أولا : ان تجديد حياة امام مثل الامام أحمد يحيى القلوب ، ويقوى العزائم ، ويربطها بربهـا ويثبت ايمانهـا ، ويدعو الى الاستقامة والاستزادة من العلم وبذل النفس في سبيله .

ثانيا : ولذلك تحدثت عن الامام أحمد .. وليس حديثى عنه لأنى حنبلي ! أو لأنى سعودي والسعودية تنتهج مذهب أحمد ...!

ثالثا : أن الجيل الحاضر اذا قرأ صبر الامام وجهاده وسعيه أربعـة أشهر ليحصـل على (سند) يرويه عن شيخه ... أدرك

البون الشاسع بين حياة الأجيال الأولى وحياتنا اليوم . فكل الوسائل لدينا مبذولة ، وكل العلوم والمواد مفهرسة وميسرة . ومع ذلك يقل العلماء .. وفى زمن اولئك كل شىء صعب وغير متيسر . ورغم ذلك برزوا وخدموا العلم ، وملأوا الدنيا حقائق ومبادىء . فلعلنا نتعظ ونعتبر ، ونسير على نهجهم ..!

رابعاً : نظراً لارتباطى بصفحات محدودة فقد اكتفيت بما يغنى القارىء عن الاطالة ، ويكفيه عن الاستزادة من حياة الامام.

والله حسبنا وهو نعم الوكيل ؟

عبد العزيز المسند

■□■



شخصيته ومؤلفاته

معلومات شخصية عن الامام :

اسمه : أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني .

ولادته : ولد الامام فى شهر ربيع الأول عام ١٦٤ هـ .

نسبه : يرجع نسب الامام الى بكر بن وائل . وكذلك نسب أمه فهو عربي الأصلين من البصرة وجده لأمه عبد الملك بن سواده من زعماء بني شيبان .

الا أن جده انتقل الى خراسان حيث ولي امارة (سرخس) فى عهد بنى أمية وفى العصر العباسى عاد جده الى بغداد عام ١٧٩ وكان من أهداف عودته اِتاحة الفرصة لهذا الغلام لطلب العلم ..

شهرته : اشتهر الامام بأحمد بن حنبل بسبب وفاة والده وهو صغير وحضانة جده (حنبل) له ..

طلبه العلم : بدت النجابة والذكاء على أحمد منذ صغره فعلمه أهله مبادىء القراءة والكتابة ، حتى حفظ القرآن ورغب فى زيادة العلم فرحلوا لبغداد حيث العلم والعلماء ، وكان يقول : «فاتنى مالك بن أنس فأخلف الله علي هشيم بن بشر السلمي ، وفاتنى عبد الله بن المبارك فأخلف الله عليّ سفيان بن عيينة ، وفاتنى حماد بن زيد فأخلف الله عليّ اسماعيل بن علية » . فكان يرجو حينما قدم بغداد أن يدرك العالم الشهير عبد الله بن المبارك الا انه توفي حين قدوم الامام فتتلمذ أولا على هشيم بن بشر ..

وفى بغداد حيث الميدان الفسيح للعلم والعلماء آنذاك أتيحت لأحمد الفرصة للارتواء من معين العلم فأخذ عن أساتذة مشهورين بالعلم والتحقيق . ولما تمكن من العلم رحل فى طلب المزيد منه الى البصرة والكوفة ثم الى مكة والمدينة المنورة ثم الى اليمن والشام فأخذ عن علماء ذلك العصر ومنهم : يحيى بن سعيد القطان ، ووكيع بن الجراح ،

وسفيان بن عيينة ، وعبد الرزاق بن همام الصنعاني ، والوليد بن مسلم، ومعتمر بن سليمان، وبشر المفضل ، وغندر ، وزياد البكائي ، وأبو يوسف القاضى . والحسن بن موسى الأشيب ، واسحاق بن راهويه ، وعلي بن المدينى، ويحيى بن معين ، والامام الشافعي .

صفاته الظاهرة :

كان الامام سمح الوجه ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، نحيل الجسم ، ولما بلغ عمره ثلاثاً وستين سنة وغلب البياض على السواد فى رأسه ولحيته صار يخضبه بالحنا والكتم اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لا يحب المزاح واذا جلس فى مجلس احترمه الجميع حتى لم يمزحوا بحضرته .

سيرته :

حينما تضلع الامام بالعلم وتأثر بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل على العبادة اقبالا شديداً حتى انه لا يرى الا قارئاً أو محدثاً أو معلماً أو مصلياً ، وكان لا يغفل لحظة من

ذكر الله تعالى واستغفاره ، وتلاوة القرآن .. وكان يصلى كل ليلة ويوم ثلاثمائة ركعة ، وبعد ضربه وضعفه اقتصر على مائة وخمسين ركعة . وكان يختم القرآن حفظاً كل أسبوع .

وقد نقل عنه من زاره في سجنه أو مرضه أنهم كانوا اذا حدثوه عن الناس أو عن الدنيا أنشد هذه الأبيات لصالح بن عبد القدوس :

اذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل
خلوت ولكن قل علىّ رقيب

ولا تحسبنّ الله يغفل ما مضى
وأن الذى تُخفى عليه يغيب

لهونا عن الأيام حتى تتابعت
ذنوب على آثارهن ذنوب

فيا ليت أن الله يغفر ما مضى
ويأذن لى فى توبة فأتوب

وقد أعطى موهبة الحفظ فيحفظ الأحاديث فور

سماعها حتى اذا كان الناس يتحدثون حفظ ما ينفع من قولهم . وقد بلغ من علمه أنه سُئِلَ عن ستين ألف مسألة فأجاب عنها باخبرنا وحدثنا ـ فيما نقله عنه عبد الوهاب الوراق وانتهى علمه الى أن طبق الآفاق فرحل اليه طلاب العلم من كل حدب وصوب حتى احتل المنزلة العليا وسمى (امام دار السلام) .

زُهده :

زُهد الامام أحمد زهد صادق لا مبالغة فيه ، ولا رهبانية بل بُعد عن متع الدنيا ، وقناعة باليسير منها ، وتنزه عن أى مشبوه ، أو غير معروف مورده من المطعوم والمتمول ، فكان يكتفى بما يسد رمقه من تمرات أو كسرة خبز مع زيت ، وقميص يستر بدنه ، وظل يقيه الحر والقر . وليكن المسجد فهو نعم المكان الذى لا يمل ولا يخلو ساكنه من فائدة . ولم ينتهز أحمد فرصة واحدة لجلب منفعة مادية لذاته أو أهله ، ولذلك لم يتقرب من الملوك رغم تقربهم اليه ، ولم يتمول ما يشغله عن

العلم والتعليم ، ولم تحمل كتب التاريخ صفات بيوته وتعداد ملابسه وأفعال زوجته وأهله . وهنا نضع بين يدى القارىء الكريم نموذجين لزهده :

الأول :

قال أبو نعيم فى الحلية : « حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا علي بن الجهم بن بدر قال : كان لنا جار فأخرج الينا كتاباً فقال : أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا نعم ، هذا خط أحمد بن حنبل فقلنا له : كيف كتبت ذلك ؟ قال : كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة ففقدنا أحمد بن حنبل أياماً لم نره ثم جئنا اليه نسأل عنه ، فقال لنا أهل الدار التى هو فيها : هو فى ذلك البيت فجئنا اليه والباب مردود عليه واذا عليه خلقان . فقلنا يا أبا عبد الله : ما خبرك لم نرك منذ أيام ؟ قال : سُرِقَت ثيابى . **فقلت له:** معى دنانير فان شئت خذها قرضاً ، وان شئت صلة، فأبى أن يفعل . فقلت : تكتب لى بأجرة قال : نعم . فأخرجت ديناراً وأبى أن يأخذه . وقال : اشتر لى

به ثوباً واقطعه نصفين فأومأ أنه يتزر بنصفه ويرتدى النصف الآخر ثم كتب لى وهذا خطه . »

الثانى :

نقل المقريزى عن الامام أحمد هذه القصة :

« حج أحمد حجات رافقه فى بعضها يحيى بن معين ، واتفقا على أنهما بعد انقضاء الحج يمضيان الى (صنعاء اليمن) يأخذان الحديث عن عبد الرزاق فوجداه فى الطواف فلما فرغ اجتمعا عليه وكان أحمد لا يعرف شخصه وانما يعرفه باسمه فقال له يحيى بن معين : هذا أخوك أحمد بن حنبل فقال : حياه الله انه ليبلغنى عنه كل ما أسر به ثبته الله تعالى على ذلك ، ثم واعد يحيى الشيخ على قراءة فلما انصرفا عنه قال أحمد لابن معين : لِمَ أخذت على الشيخ الموعد قال له يحيى : قد أراحك الله مسيرة شهر ورجوع شهر والنفقة . فقال الامام أحمد : ما كان الله ليرانى وقد نويت نية أفسدها بما تقول ، ثم سافرا الى (صنعاء اليمن) وأخذا عنه بها .

ويجدر التنويه هنا الى أن أحمد حج سبع حجات منها ثلاث ماشياً على قدميه . وفي رحلته هذه كان ماشياً لأنه ليس معه ما يكترى به ظهراً . وقد عرض عليه أناس أن يقرضوه فأبى واشتغل مع الجمالين ليكتسب نفقات رحلته حتى وصل الى (صنعاء) وقد لقي فيها من الضنك ما لا يحد وبقي هناك عامين وقد عرض عليه شيخه أن يأخذ ما يكفيه لنفقته فأبى . وكان يقتات مما أخذ من الجمّالين ، ويعمل أحياناً بيده ، وعلىظهره فى (صنعاء) وقد أثر ذلك فى بدنه وظهر شحوب على وجهه وكفيه . وكان يحمد الله على الكسب الذى حصل عليه لأخذه من شيخه عبد الرزاق رواية (الزهرى عن سالم بن عبد الله عن أبيه) .

وكان من تواضعه وصفاء ذهنه وسلامة نيته ، وطيبة قلبه أن اسحاق بن ابراهيم سأله فى خلافة المتوكل أن يحله عما فعل به من الأذى والضرب فى خلافة المعتصم فقال له الامام : « انه قد أحل كلمن سعى فى ايذائه أو شارك فيه بطريقة من الطرق

ابتّان تلك المحنة) فكان خلقه كذلك سمحاً سهلا الا اذا انتهكت حرمات الله أو شم رائحة النيل من دين الله .

ومن زهده وبعده عن لين العيش أنه لما خلي سبيله وجلس في داره وضعت له وسادة من خيش مكسوة فابتعد عنها وجلس على وسادة له ، وجعل يواصل الصوم ويفطر كل ثلاث على سويق أورغيف، وكان لا يجلس على المائدة بل توضع في مكان آخر يأكل منها من سواه ، وكان اذا جهده الحر تبل له خرقة فيضعها على صدره .

وحينما أيقن المتوكل أن كل ما فعل بأحمد خطأ بدأ يستميله فعرض عليه بواسطة رسله أن يجعل له رزقاً من بيت المال يعيش منه هو وأهله فرفض باصرار ، ثم حاول اقناعه بشراء دار له ودعا حاكم (العراق) ابنه صالحاً ليشترك في اختيار الدار فلما أخبر والده قال : لا . ان اشتركت في هذا الأمر فهي القطيعة بيني وبينك فلم يقبل شراء الدار . ثم حاول اقناعه بزيارته والجلوس معه ووعد

باكرامه وتقريبه فرفض وابتعد ولم تجد فيه محاولة أقاربه وأصدقائه والمقربين للخليفة .

عمله بما علم :

لم ينل أحمد العلم بالهين من الأمور أو بسبب صدفة نادرة ، ولكنه ـ بعد توفيق الله تعالى ومنّه ـ أدرك ذلك بالصبر والملازمة والانقطاع . ثم بأمر مهم فى هذا السبيل وهو الايمان والصدق والتطبيق على النفس فوراً . قال ـ رحمه الله تعالى ـ : « ما كتبت حديثاً الا وقد عملت به حتى مر بى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى الحجام أبا طيبة ديناراً فاحتجمت وأعطيت الحجام ديناراً . » وفى الوقت الذى يضاعف جهده لتحصيل العلم لا يكتم ما علم ولا يسكت عليه بل يعلمه للناس ، فقد جلس لتعليم العلم وتدريسه وهو حدث فى أول العقد الثالث حتى قصده الناس من كل فج عميق ، وتتلمذ عليه مشايخه ، وكبار العلماء وكان حفظه نادراً حتى انه لا يباريه أحد ولا يشذ منه فاذة . وقد صرف كل لحظة من عمره

فى تحصيل علم أو تعليمه للنـــاس بالقول والعمل والسلوك .. ومنع نفسه من بعض المباحات خشية ميل نفسه للترف أو لين العيش ، أو النظر لما فى أيدى الناس ، فلم تغره الدنيا ، ولم يجتذب بهرجها اللمـــاع فى (بغداد) وما كان يفـــكر كيف يأكل ويشرب أو يركب أو ينـــام بل يفـــكر فى وســـيلة للحصول على فائدة ولو بذل لها من دمه وبدنه .

فضائل الامام ومناقبه :

توجد مصنفات عديدة فى فضائل ومناقب الامام ومنها ما ألفه (أبو الفرج ابن الجـــوزى) ولقـــد ضربت صفحاً عن ذلك لأمور .

أولا : ان ذلك ليس من هدفنا فى هذا البحث .

ثانياً : انه موجود لمن أراد الرجوع اليه والاطلاع عليه .

ثالثاً : أنه لا يخلو من المبالغة والانسياق فى رفع الامام درجات فوق منزلته وهذا لا نراه ولا نقره .

رابعاً : أن الناس ميالون الى مثل هذه الأمور التى

تروى فيها الأعاجيب والرؤى ، وهى ليست بحجة ولا تليق بمنزلة العلماء والزهاد الذين حققوا التوحيد وبعدوا عن الشبهات فى حياتهم .

خامساً : انها لا تزيد من قدر الامام أو غيره وقد أفضوا الى ما قدموا فقد انقطع العمل وأفضوا الى ما قدموا ولم يبق لهم سوى ما قدموا وما كتب لهم من الأجر والثواب ، ورحمة الله واسعة . نسأل الله أن يدخلنا فيها وأن يلحقنا بامام الخلق جميعاً سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

انتاج أحمد :

يمكن أن نلخص انتاج الامام فى أمرين :

الأول : تلامذته : خلف الامام عدداً من العلماء أخذوا عنه الحديث والفقه وكانوا جهابذة محققين، خدموا السُنّة وحققوا مذهب أحمد وكان لهم مؤلفات وتلاميذ الى يومنا هذا . وهذه نتيجة حمل العلم والعمل به ومن تلاميذه عدد من شيوخه كان يأخذ عنهم العلم مثل يزيد بن هارون وعبد الرزاق

وابن مهـدى . ومن تلاميـذه البخـاري ومسـلم وأبو داود ، وعلي بن المدينى وابناه صالح وعبد الله وابن عمه حنبل بن اسحاق ـ وأبو زرعة الرازي وأبو بكـر أحمـد بن محمـد بن هانىء الطـائى وأبو حاتم الرازي . وموسى بن هارون وعثمان بن سعيد الدارمي ..

الثانى : مؤلفاته : أهم مؤلفـات الامام أحمـد (المسند) الذى ارتبط باسمه فلا يذكر الامام الا ويذكر المسـند .. وهو كتـاب عظيم القـدر كبير الفـائدة . قال عنه الامام : « ان هذا الـكتاب قد جمعتـه ، وانتقيته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألفاً فما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فارجعوا اليه فان كان فيه والا ليس بحجة . »

وقد التزم بألا يجعل فيه سوى الحديث الصحيح المتن والاسناد ، حيث انتهى ما بين الثلاثين والأربعين ألف حديث ، وجعلها فى مسـنده ، وشملت هـذه

الأحاديث الرواية عن سبعمائة صحابي رضي الله عنهم .

وكان الامام يحفظ السبعمائة والخمسين ألف حديث وغيرها . والمسند الموجود بين أيدى الناس مأخوذ عما دَونَهُ الامام بيده ونقله عنه ابنه (أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد) وقد أمضى الامام سنين طويلة في تأليفه ، وشملت أحاديثه جميع أبواب الحديث التى نظمها المحدثون ، لكن كان جل هدف أحمد من جمع المسند هو انتقاؤه وتخليصه من الشوائب . وقد قرأه بنفسه على ابنيه صالح وعبد الله وعلى عمه اسحاق بن حنبل اكمالا لضبطه ، وصدقاً فى روايته .

ومن المناسب هنا أن نثبت السببفىعدم انتشار المسند بين يدى المسلمين جميعاً انتشاراً متداولا كصحيحي البخاري ومسلم لأنه رحمه الله ــ رتبه على أسانيد الصحابة ، ولم يجعله على الترتيب الذى اصطلح عليه المحدثون والفقهاء ، فكان ذلك عائقا

للبعض عن اتخـاذه مرجعـه الأول ، وكذلك طوله وعدم قيام أحد بترتيبه فى الزمن الأول ..!

أما ما عدا المسند فلم يهتم الامام أحمد بالتأليف بعد هذا وانشغل بالتـدريس ، لاعتقاده أن العـلم يؤخذ من أفواه الرجال ..

وله بعض رسائل صغيرة كتبها فى مناسبات منها:

١ ـ الرد على الجهمية ..
٢ ـ كتاب الصلاة ..
٣ ـ كتاب السُّنَّة ..
٤ ـ كتاب الورع ـ الايمان ..

المحنة العظمة

تناول العلماء قديماً وحديثاً البلوى التى امتحن بها أحمد بن حنبل وألفوا فيها كتباً وصحائف ولعل أمراً قد يغفله بعضهم وهو الدس على المسلمين فى أصول دينهم ومسائله الحساسة . فان أناساً ورمت أنوفهم أن ينتصر دين الله وأن يسود فى الأرض ولكنهم لا يملكون معارضته أو نفيه علناً فهم يندسون فى صفوف المسلمين كالمرض الدفين فاذا وجدوا فرصة رفعوا رؤوسهم وبثوا أفكارهم فينخرون فى جسم الأمة الاسلامية ويستخدمون فى ذلك وسائل متعددة وأهمها :

جلساء السوء والبطانة السيئة :

ان أخطر شيء فى حياة الأمة الاسلامية هذا النوع من الناس الذين يندسون الى الحكام ليتقربوا اليهم بما يحبون ويزينوا لهم ما يشتهون حتى يتمكنوا من قلوبهم فيحققوا أهدافهم بواسطتهم

وهكذا كان مسلك المعتزلة الذين خرجوا ببدعة القول بخلق القرآن وأول من قال بذلك رأس المعتزلة (الجعد بن درهم) فى عصر الأمويين ولكنه قضي عليه فى مهده حين ضحى به الأمير الشهم (خالد بن عبد الله القسري) أمير الكوفة بأمر هشام ابن عبد الملك . فقد أحضر الجعد موثقاً بالقيود الى المصلى وعندما انتهى خالد من خطبته قال :

«أيها الناس ضحوا تقبل اللهضحاياكم فانىمضح بالجعد بن درهم لأنه يقول : لم يكلم الله موسى تكليماً ولم يتخذ الله ابراهيم خليلا تعالى الله عما يقول علواً كبيراً ثم نزل من المنبر وقتله ..

ثم ظهرت هذه البادرة بعد حين دعا لها (الجهم ابن صفوان) ووجد لها بعض أنصار ثم خمد هذا القول ما عدا بعض جذور مستترة ولم تبد بعد ذلك سوى مرة فى عهد الرشيد ولكنه قضىعليها وأرهب من تسول له نفسه القول بها وقد أثبت ذلك أبو الفرج بن الجوزى فقال :

« لم يزل الناس على رأي السلف وقولهم ان القرآن كلام الله غير مخلوق حتى نبغت المعتزلة فقالوا بخلق القرآن وكانوا يستترون بذلك الى زمن الرشيد حتى ان الرشيد قال يوماً : بلغنى أن بشراً المريسى يقول : القرآن مخلوق والله عليَّ ان أظفرنى الله به لأقتلنه قتلة ما قتلت بها أحداً قبله ولما علم بشر بذلك ظل متوارياً أيام الرشيد نحواً من عشرين سنة فلما توفي الرشيد كان الأمر كذلك فى زمن ولده الأمين فلما ولي المأمون خالطه قوم من المعتزلة فضللوه وحسنوا له القول بخلق القرآن . »

وهى كذلك لم تبلغ مبلغها ، ولم تنتقل الى امتحان وابتلاء الا حين خطط الأعداء لها وتوصلوا الى ادخال البلاط الملكي زعيمين من زعمائهم :

الأول : أبو الهذيل العلاف حيث كان مؤدباً وأستاذاً للمأمون حتى أدخل عليه هذه المعتقدات .

والثاني : أحمد بن أبى دؤاد الذى تقرب الى المأمون حتى بلغ منصب الوزارة ، وكان عالماً لبقاً

استخدم علمه فى تسخير الخليفة المأمون بقبول رأيه فى القول بخلق القرآن . ولم يكن اقناع المــأمون وهو العالم الأريب الأديب بالشيء السهل ، ولكن ابن أبى دؤاد ــ كما قلت ــ عاش حيــاته ينتظــر فرصة واحدة يستلب بها موافقة المأمون .. فما هى الا أن حانت فرصة فى لحظة من اللحظات النادرة اذ مرض الخليفة القــوي ، صعب الشــكيمة ــ وابن أبى دؤاد ــ جليسه ونديمه يعرف حركاته وسكناته وانفعالاته ــ فلما سنحت اللحظة الحاسمة .. التى لم يدركها سواه حيث ينتظرها كل حياته ــ وكان المأمون بعيداً عن بقية رجاله المخلصين له ــ حيث مرض (بطرطوس) أحد موانىء الشــام فحرر ابن أبى دؤاد رسالة الى عدد من العلماء والقضاة تلزمهم بالقول بخلق القرآن : ووقعها المريض : ووزعهــا أتباع ابن أبى دؤاد : وهذا نصها :

« أما بعــد ، فان حــق الله على أئمــة المسلمــين وخلفائهم الاجتهاد فى اقامة دين الله الذى استودعهم، والعمل بالحــق فى رعيتهم ، والتسخير لطاعــة الله

فيهم .. والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ، والاقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته . وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ، ممن لا نظر له ولا روية ولا استدل له بدلالة الله وهدايته ، ولا استضاءة له بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق . أهل جهالة بالله وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والايمان به ، ونكوب عن واضحات اعلامه وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه لضعف آرائهم ، ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكير والتذكير . وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن . فأطبقوا مجتمعين ، واتفقوا غير متعارفين على أنه قديم أزل لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه ، وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء ، وللمؤمنين رحمة وهدى : (انا جعلناه قرآناً عربياً) فكل ما جعله الله فقد خلقه . وقال (الحمد لله الذى خلق

السموات والأرض وجعل الظلمات والنـور) وقال عز وجل : (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) فأخـبر الله قصصـاً لأمور حـدثت بعدها ، وتلا به تقدمها وقال : (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ..) وكل محكم مفصل فـله محكم مفصل والله محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه . ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا الى قولهم ونسبوا أنفسهم الى السُّنَّة ، وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل قولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فاستطالوا بذلك على الناس ، ومردوا به الجهال ، حتى قال قوم من أهـل السمت الكاذب والتخشع لغير الله ، والتقشف لغـير الدين الى موافقتهم عليـه ، ومواطأتهـم على سيء آرائهم تزيناً بذلك عندهم وتصنعاً للعدالة والرئاسة فيهم ، فتركوا الحـق الى باطلهم واتخذوا دون الله وليجـة الى ضلالتهم ، فقبلت بتزكيتهم لهم شـهادة

ونفذت أحـكام الكتاب بهم على دغل أمنهم ، ونفل أديمهم ، وفساد نياتهم ويقينهم ، وكان ذلك غايتهم التى اليها جروا واياها طلبوا فى متابعتهم، والكذب على مولاهم وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه أولئك الذين أصمهم الله فأعمى أبصارهم : (أفـلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها .)

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيـد حظاً والمبخوسون من الايمان نصيباً وأوعية الجهالة وأعيان الـكذب ولسـان ابليس الناطق فى أوليائه ، والمـائل على أعدائه من أهل دين الله ، وأحق من يتهم فى صدقه، وتطرح شهادته . ولا يوثق بقوله ولا عمله فانه لا عمل الا بعد يقـين ، ولا يقـين الا بعد استكمال حقيقة الاسلام واخلاص التوحيد ، ومن عمي عن رشده وحظه من الايمان بالله وتوحيده ، كان عمـا سوى ذلك من عمـله والقصـد فى شـهادته أعمى وأضل سبيلا . .

ولعمر أمير المؤمنين أن أحجى الناس بالكذب فى قوله و تخرص الباطل فى شهادته ، من كذب على الله فى وحيـــه ، ولم يعــرف الله حقيقـــة معرفته ، ان أولاهم برد شهادته فى حكم الله وذمته من رد شهادة الله ، وبهت حق الله مماطلة ..

فاجمـــع من بحضرتك من القضـــاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشفهم عما يعتقدون فى خلق القرآن واحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستهـين فى عمــله ولا واثق فيما قــلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده ويقينه ...

فاذا أقروا بذلك ووافقــوا أمير المؤمنـــين فيـــه وكانوا على ســبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على النـــاس ، ومساءلتهم عن علمهم فى القرآن ، وترك اثبات شهادة من لم يقرأنه مخلوق محــدث ولم يره ، والاستناع من توقيعهـــا عنده ...

واكتب الى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مساءلتهم ، والأمر لهم بتمثل ذلك ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله الا لشهادة أهل البصائر فى الدين والاخلاص للتوحيد .

واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك ان شاء الله » .

وبهت الناس عندما قرأوا تلك الرسالة وتردد بعضهم ، وخاف أكثرهم ، وتسلط دعاة الشر بسلاح هذه الرسالة طالبين تنفيذها ، وهم فى قرارة أنفسهم ينفذون بدعتهم وكيدهم للاسلام وفى الظاهر يتابعون تنفيذ أوامر السلطان ، وقد تمادوا فى ذلك فاستعانوا بقوة الشرطة وركزوا على من يطاع أمره ويتبع رأيه ، يحضرون اليه فى بيته أو يطلبونه للقصر فيقولون له أمام جماعته : ما يقول فى القرآن ؟ أهو منزل أم مخلوق ؟ فان قال : انه منزل عذبوه .. وان قال انه مخلوق تركوه ..

الى أن وصل الحال بأحمد بن حنبل فانهم أحضروه وقالوا له : ما تقــول فى القرآن ..؟ فيقــول : هو كلام الله ، فيقولون له : هل هو مخلوق ؟.. فيقول : هو كلام الله .. فيقولون : قل انه مخلوق فلا يجيب ولا يزيد على قوله : انه كلام الله ؛ ولمــا صاولوه وصمد أمام تهديدهم قيدوه وحملوه الى (طرطوس) ليقابل الخليفة (المأمون) وشاء الله أن يتوفى المأمون قبل وصول الامام اليه ، وبعد تولى خليفته وأخيــه (المعتصم) بأيام زعموا أن المأمون أوصى لأخيه أن يستمر بالقــول بخلق القرآن .. فبقي الامام أحمد فى السجن ، ولما فرغ له المعتصم ، استدعاه بتدبير ابن أبى دؤاد الــذى بقي فى وزارتــه للمعتصــم أيضاً ..

فحاجّه المعتصم بنفسه وهدده ثم أغراه بالمــال والجاه ، ولكنه لم يلن ولم يغير موقفه ، فكان يقول: (القــرآن كلام الله منزل غــير مخلوق) فجُلد فى مجلس المعتصم ، وضُرِبَ بالسياط الى أن أغمي عليه فاذا أفاق قيل له : تقــول بخلق القــرآن ؟ فيقول : هو كلام الله ، حتى بلغ به الحال أن أغمي

عليه من شـدة الضرب ، فينخس بالسيف في بدنه فلا يحس ، فاذا أفاق لم يسمع منه سوى ذكر الله .

ثم أعادوه للسجن وبقي فيه مضيقاً عليه عامين ونصف عام ، وكانوا كلما علموا أن جراحه قـد برئت عادوا يحاولون التأثير عليه فيبقى مصراً على رأيه فيعاد للسجن في بغداد بعد الاهانة والتعذيب، وتوفي المعتصم وتولى الواثق الذى تبع سلفيه ، الا أنه لم يعذب الامام بل اكتفى بمنعه من التدريس والاجتماع بالناس، وفرض عليه الاقامة الجبرية في منزله .

وتوفي الواثق وخلفه المتوكل فاختبر الامام وكلمه مرات وجادله وعرض عليه المال فلم يقبله .

المناقشة :

من قراءة الرسالة الأولى ، يبدو جلياً أنها ليست من املاء ولا من كتابة المأمون لما يلي :

١ ـ مجيىء التعبير بلفظ الغائب (ان أمير المؤمنين) ؛

٢ ـ وجود عبارات شاذة لا يليق بخليفة المسلمين

النطق بها فى خطابه للعلماء والفقهاء وكبار الرعية .

٣ ـ الاستعلاء والكبرياء فى التعبير وهذا لا يناسب ذكاء وأدب المأمون المعروف بالعلم والفصاحة والذوق .

٤ ـ ان عدم سلامة الهدف واضح فى هذه المحنة ، والا فان ما وسع من قبلهم يسعهم ، وامتحان الناس على هذه الصورة مما يدفعهم فى الفتنة ويوجد عندهم القلق والبلبلة والشك فى دينهم فلم يأمر الله عباده ولا أمرهم رسوله بأن يبتلوا الناس بهذا الامتحان الشاق ويعرضوهم للأذى والوقوع فى مزلات الأقدام ، ومصارع الشك والريب ، فغالبهم لا يدرك هذا الأمر ، ولا يعرف مدى الفرق بين القول بخلق القرآن أو عدم خلقه

٥ ـ التطويل الذى زاد عن الحد فى الرسالة وهذا ليس من أساليب الحكام وخاصة فى مثل بحث شائك كهذا ، والتطويل فيه يعرض للخطأ ويوجد مستمسكات للخصم ، ويوهن من حجة الكاتب .

٦ ـ سلوك المحاجة فى الخطاب واكثار الأدلة دليل على أن صاحب الرسالة ند أو أقل من ند للمخاطب . فهو يستعين على حجته بالدليل ومحاولة الاقناع . ولأجل هذا ذهب كثير من النقاد الى أن ابن أبى دؤاد ، هو الذىأعد هذهالرسالة وما سيأتى بعدها من رسائل . وانتهز الفرصة التى كان ينتظرها منذ زمن طويل ليوقعها المأمون على علاتها.

الرسائل :

سنورد هنا رسائل ثلاثا تلت الرسالة الأولى ، وكلها متقاربة ومن منشأ واحد ، ولن نناقش هذه الرسائل أو نفندها ، ولكننا نوردها من أجل معرفة تطور المحنة ، وموقف الخصمين ليطلع المهتمون لهذا الحدث العظيم على مجرياته وطريقة سيره ، وليحذر الغيورون على الاسلام ـ من حكام وعلماء وبطانة ـ من استغلالهم لأي فتنة شخصية أو عامة تحت أي مبدأ وأي ستار ومع ذلك فهي قطع أدبية تعطينا فكرة عن الأساليب ونهج الكتابة فى ذلك العصر .

الرسالة الأولى :

هذه الرسالة عبارة عن أمر الخليفة لعامله على العراق اسحاق بن ابراهيم أن يبعث اليه سبعة من كبار المحدثين فى بغداد ، وهم محمد بن سعد ، وأبو مسلم ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب ، واسماعيل بن داود ، واسماعيل بن أبى مسعود ، وأحمد بن ابراهيم الدورقي .

ولما مثلوا بين يديه أجابوا لما دعاهم له ، فأعادهم الى بغداد وأمر عامله عليها أن يعلن أقوالهم للعامة .

ولما علم الامام أحمد بما حصل منهم اغتم لذلك كثيراً وقال : « انهم أول من ثلم هذه الثلمة » .. وقال : « لو كانوا صبروا وقاموا لله لكان انقطع الأمر وحذرهم الرجل ولكن لما أجابوا وهم عين البلد اجترأ على غيرهم » .

الرسالة الثانية :

قد نقل ابن جرير نص هذه الرسالة كما يلى :

« أما بعد : فان من حق الله على خلفائه فى أرضه وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لاقامة

دينه، وحملهم رعاية خلقه ، وامضاء حكمه وسنته، والائتمام بعدله في بريته ، أن يجهدوا لله أنفسهم وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه تبارك وتعالى بفضل العلم الذى أودعهم ، والمعرفة التي جعلها فيهم ، ويهدوا اليه من زاغ عنه ،ويردوا من أدبر عن أمره وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ، ويقفوهم على حد ايمانهم وسبيل فوزهم وعصمتهم، ويكشفوا لهم عن معطيات أمورهم ومشتبهاتهم عليهم بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم وأن يؤثروا ذلك من ارشادهم وتبصيرهم، اذ كان جامعاً لفنون مصانعهم ومنتظماً لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ويتذكروا ما الله مرصد من مساءلتهم عما حملوا ، ومجازاتهم بما أسلفوا وقدموا عنده وما توفيق أمير المؤمنين الا بالله وحده وحسبه الله وكفى به . ومما بينه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره فتبين عظيم خطره وجليل ما يرجع في الدين من وكفه وضرره ما يناله المسلمون بينهم من القول في القرآن الذى جعله الله اماماً لهم ، وأثراً من رسول الله وصفيه صلى الله عليه وسلم ،

باقبالهم ، واشتباهه على كثير منهم حتى حسن عندهم وتزين فى عقولهم ، ألا يكون مخلوقاً فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذى بان عن خلقه وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته وانشائها بقدرته والتقدم عليها بأوليته التى لا تبلغ أولاها ولا يدرك مداها ، وكان كل شيء دونه خلقاً من خلقه وحدثاً هو المحدث له ، وان كان القرآن ناطقاً به ودالا عليه وقاطعاً للاختلاف فيه، وضاهوا به قول النصارى فى ادعائهم بعيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق وان كان كلمة الله ، والله عز وجل يقول : « انا جعلناه قرآناً عربياً » وتأويل ذلك أنا خلقنا كما قال جل جلاله : « وجعل منها زوجها ليسكن اليها » وقال : « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً » « وجعلنا من الماء كل شيء حي » فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التى ذكرها فى شبه الصنعة وأخبر أنه جاعله وحده فقال : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » فقال ذلك على احاطة اللوح بالقرآن ولا يحاط الا بمخلوق .

وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « لا تحرك به لسانك لتعجل به » وقال : « ما ياتيهم من ذكر من ربهم محدث » وقال : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته » وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا : (ما أنزل الله على بشر من شيء) ثم كذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله : (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) فسمى الله تعالى القرآن قرآناً وذكرى وايماناً ونوراً وهدى ومباركاً وعربياً وقصصا فقال : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن) وقال : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) وقال : (قل فأتوا بعشر سور من مثله مفتريات) وقال : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) فجعل له أولا وآخراً ودل عليه أنه محدود مخلوق .

وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم فى القرآن الثلم فى دينهم والجرح وسهلوا السبيل لعدو الاسلام ، واعترفوا بالتبديل والالحاد على قلوبهم حتى عرفوا

ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التى هي له وحده وشبهوه به والأشباه أولى بخلقه .

وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظاً فى الدين ، ولا نصيباً من الايمان واليقين . ولا يرى أن يحل أحداً منهم محل الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدق فى القول ولا حكاية ، ولا تولية لشيء من أمر الرعية ، وان ظهر بعضهم وعرف بالسداد سدد فيهم فان الفروع مردودة الى أصولها ، ومحمولة فى الحمد والذم عليها ومن كان جاهلا بأمر دينه الذى أمر الله به من وحدانيته فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلا . فاقرأ على جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن اسحاق القاضى كتاب أمير المؤمنين بما كتب به اليك ، وانصصهما عن علمهما فى القرآن وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين الا بمن وثق باخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق ، فان قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك فتقدم اليهما فى امتحان من يحضر مجالسهما

بالشـــهادات على الحقـــوق ونصصهم على قـــولهم فى القرآن فمن لم يقل منهم انه مخلوق أبطلا شهادته ولم يقطعا حكماً بقوله ، وان ثبت عفافه بالقصـــد والسداد فى أمره ، وافعل ذلك بمن فى سائر عملك من القضـــاة وأشرف عليهم اشرافاً يزيد الله به ذا البصيرة فى بصيرته ويمنع المرتاب من اغفال دينه واكتب الى أمير المؤمنين بمـــا يكـــون منك فى ذلك ــ ان شاء الله ــ » .

الرسالة الثالثة :

وفى الطبرى أيضـــاً نص هذه الرســـالة وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد : فقـــد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه ، كان اليك فيما ذهب اليه متصنعة أهل القبلة وملتمســـو الرئاسة فيمـــا ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول فى القـــرآن وأمرك به أمير المؤمنـــين من امتحـــانهم وتكشـــيف أحوالهم واحلالهم محالهم تذكر احضارك جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن اسحاق عند ورود كتاب أمير المؤمنين مع من أحضرت ممن كان ينتسب الى الفقه ويعرف بالجلوس للحـــديث وينتصب نفسه للفتيـــا

بمدينة السلام وقراءتك عليهم جميعاً كتاب أمير المؤمنين ومسألتك اياهم عن اعتقادهم في القرآن والدلالة لهم على حظهم واطباقهم على نفي التشبيه واختلافهم في القرآن وأمرك من لم يقل منهم انه مخلوق بالامساك عن الحديث والفتوى في السر والعلانية وتقدمك الى السندي وعباس مولى أمير المؤمنين بما تقدمت به فيهم الى القاضيين بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين من امتحان من يحضر مجالسهما من الشهود وبث الكتب الى القضاة في النواحي من عملك بالقدوم عليك لتحملهم وتمتحنهم على ما حده أمير المؤمنين وتثبيتك في آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتهم وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت وأمير المؤمنين يحمد الله كثيراً كما هو أهله ويسأله أن يصلي على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ويرغب الى الله في التوفيق لطاعته وحسن المعونة على صالح نيته برحمته .

وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن وما رجع اليك فيه كل امرىء

منهم وما شرحت من مقالتهم فأما ما قال المغـرور (بشر بن الوليد) فى نفي التشبيه وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق وادعى من تركه الـكلام فى ذلك واستعهاده أمير المؤمنين فقد كذب بشر فى ذلك وكفر وقال الزور والمنـكر ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ولا فى غيره عهد ولا نظـر أكثر من اخباره أمير المؤمنين من اعتقـاده كلمـة الاخلاص والقول بأن القرآن مخلوق فادع به اليك وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك وأنصصه عن قوله فى القرآن واستتبه منه فان أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالتـه اذ كانت تلك المقـالة الـكفر الصراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين فان تاب منها فأشهر أمره وأمسك عنه وان أصر على شركه ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره والحاده فاضرب عنقه وابعث الى أمير المؤمنين برأسه.

وكذلك ابراهـيم بن المهـدي فامتحنـه بمثـل ما تمتحن به بشراً . فان يقول بقوله ــ وقد بلغت أمير المؤمنين عنـه بوالغ ــ فان قال : ان القـرآن

مخلوق فأشهر أمره واكشفه والا فاضرب عنقه وابعث الى أمير المؤمنين برأسه .

وأما علي بن أبى مقاتل فقل له : ألست القائل لأمير المؤمنين انك تحلل وتحرم والمكلم له بمثل ما كلمته به مالم يذهب عنه ذكره .

وأما الذيال بن الهيثم فأعلمه أنه كان فى الطعام الذي كان يسرقه فى الأنبار وفى ما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين (أبى العباس) ما يشغله وأنه لو كان مقتفياً آثار سلفه وسالكاً مناهجهم ومحتذياً سبيلهم لما خرج الى الشرك بعد ايمانه .

وأما أحمد بن يزيد المعروف ب (أبى العوام) وقوله : لا يحسن الجواب فى القرآن فأعلمه أنه صبي فى عقله لا فى سنه جاهل وأنه اذا كان لا يحسن الجواب فى القرآن فسيحسنه اذا أخذه التأديب ، ثم ان لم يفعل كان السيف من وراء ذلك ـ ان شاء الله ـ .

وأما (أحمد بن حنبل) وما تكتب عنه فأعلمه

أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة ، وسبيله فيها ، واستدل على جهله وآفته بها .

وأما الفضل بن غانم ان لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر واما اكتسب من الأموال فى أقل من سنة . وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله في ذلك فانه ما كان شأنه شأنه وكانت رغبته فى الدينار والدرهم رغبته فليس بمستنكر أن يبيع ايمانه طمعاً فيهما وايثاراً لعاجل نفعهما ، وأنه مع ذلك القائل لعلي بن هشام ما قال ، والمخالف له فيما خالفه فما الذى حال ذلك ونقله الى غيره .

وأما الزيادي فأعلمه أنه كان منتحلا لأول دعي كان فى الاسلام خولف فيه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان جديراً أن يسلك مسلكه ولكن أنكر (أبو حسان) أن يكون مولى لزياد أو يكون مولى لأحد من الناس وذكر أنه انما نسب لزياد بن أبيه لأمر من الأمور .

وأما المعروف بـ (أبى نصر التمار) فان أمير المؤمنين شبه خساسة عقله بخساسة متجره .

وأما المفضل بن الفرخان فأعلمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذ الودائع التى أودعها اياه (عبد الرحمن بن اسحاق) وغيره تربصاً بما استودعه وطمعاً فى الاستكثار لما صار فى يده ، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده وتطاول الأيام به فقل لعبد الرحمن بن اسحاق لا جزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا وايمانك اياه ، وهو معتقد للشرك منسلخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بـ (أبى معمر) فأعلمهم بأنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم فى الله ومجاهدتهم الا لاربائهم وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم لاستحل ذلك فكيف بهم وقد جمعوا مع الارباء شركاً وصاروا للنصارى مثلا .

وأما أحمد شجاع فأعلمه أنك صاحبه بالأمس والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذى كان

استحله من مال علي بن هشام وأنه ممن الدرهم والدينار دينه .

وأما سعدويه الواسطي فقل له قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث والتزين به والحرص على طلب الرياسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها متى يمتحن فيجلس للحديث .

وأما المعروف بسجاده[1] وانكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق فأعلمه أنه فى شغله باعداد النوى وحكه لاصلاح سجادته وبالودائع التى دفعها اليه (علي بن يحيى) وغيره وما أذهله عن التوحيد ولهاه . ثم سله عما كان يوسف بن أبى يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه ان كان شاهدهما وجالسهما .

وأما القواريري ففيما تكشف من أحواله وقبوله الرشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه ، وسوء

(١) سجاده هو الحسن بن حماد .

طريقته ، وسخافة عقله ودينه ، وقد انتهى الى أمير المؤمنين أنه يتولى (لجعفر بن عيسى الحسني) مسائله فتقدم الى (جعفر بن عيسى) فى رفضه وترك الثقة به والاستنامة اليه .

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمري فان كان من ولد (عمر بن الخطاب) فجوابه معروف .

وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم فانه لو كان مقتدياً بمن مضى من سلفه لم ينتحل النحلة التى حكيت عنه وأنه يعد صبياً يحتاج الى تعلم . وقد كان أمير المؤمنين وجه اليك المعروف (بأبى مسهر) بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محنته فى القرآن فجمجم عنها ولجلج فيها حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف فأقر دميماً فأنصصه عن اقراره فان كان مقيماً عليه فأشهر ذلك وأظهره . ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين فى كتابك وذكر أمير المؤمنين لك أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا ولم يقل ان القرآن مخلوق بعد (بشر ابن الوليد) و (ابراهيم بن المهدي) فاحملهم

أجمعين موثقين الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم وحراستهم فى طريقهم حتى يوديهم الى عسكر أمير المؤمنين، ويسلمهم الى من يؤمن لتسليمهم اليه لينصحهم أمير المؤمنين فان لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف ان شاء الله ولا قوة الا بالله.

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا فى خريطة(١) بندارية ولم ينتظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلا به تقرباً الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ورجاء ما اعتمد وادراك ما أمل من جزيل ثواب الله عليه فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين وعجل اجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط ليعرف أمير المؤمنين بما يعملونه ان شاء الله » .

ومن قراءة هذه الرسالة تبدو المناقشة التى أثبتناها عند أول رسالة واضحة جلية هنا ففيها تحامق وفيها سباب على طريقة النساء اللاتى

---

(١) يعنى خص هذا الكتاب بجعله بكيس من قماش نعلها من جلد فيه رباطها للعناية به ولم يجعله مع الكتب العامة ويحمله البريد المعتاد .

لا يقوين على سواه ولا يليق هذا النهج بحاكم يلوح أحياناً بالحمل على السيف وبقطع الرأس وبعثه اليه .

ويبدو فيها التناقض ، وعدم الاتزان فى التعبير والمناقشة ، ويظهر فيها سقوط سهم المتكلم فقد ضرب خصمه بآخر سهم من قوسه وهو ضعيف لكنه سيستنفده ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن المحرر لهذه الرسائل أتباع (أحمد بن أبى دؤاد) الذين يحركون الفتنة لتشغل المسلمين عن الأهم ، ولتذهب بفضل الحكام والعلماء حتى يبقى الناس فوضى لا سراة لهم فتعم الفتنة ، ويحصل الارتباك ، ولكن الله وقى المسلمين من أثرها ونجى الامام (أحمد) منها وكانت العاقبة له كما سنتبينه فيما يأتى ان شاء الله .

وكل هذه الأسماء التى وردت فى هذه الرسالة تم استدعاء أصحابها ونصوا ـ على حد تعبير كاتب الخليفة ـ فوافقوا جميعاً وتردد ثلاثة منهم وبعد التعذيب وافقوا متأولين التقية وثبت الامام ثبوت

الراسيات ، وكان لا يغضب من اخوانه العلماء بل يجد لهم مبررأ فيقول : (أليسوا قد حبسوا وقيدوا والله تعالى يقول : « الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » والقيد كره والحبس كره والضرب كره فأما من لم ينل بمكروه فلا عذر له) .

التسفير والسجن لأحمد :

عندما أعيت الحيل المحققين والمناظرين الأول وبقى الامام مصرأ على رأيه ، وكان معه (محمد ابن نوح) رأى من حول الخليفة أن يشخص (أحمد) اليهم فى (طرطوس) لابعاده عن بغداد ومناصريه فيها من العلماء وسواد الناس ، ولمحاولة الضغط والتأثير عليه من قرب ، فأمر اسحق بن ابراهيم عامل بغداد أن يبعث بالرجلين مقيدين مهانين على بعير ومعهما مرافق يقال له (أحمد بن غسان) وقد نقل (أبو نعيم) فى (الحلية) حديث أحمد بن غسان قال : « حملت أنا وأحمد بن حنبل فى محمل يراد بنا المأمون فلما صرنا قرب (عانة) قال لى أحمد : قلبى يحس أن (رجاء الحضاري) يأتى هذه

الليلة فان أتى وأنا نائم فايقظنى فلم يكُ بأسرع أن خرج علينا رجاء الحضاري فقال : أين هؤلاء الأشقياء ؟ فقال أحمد بن حنبل : يا عدو الله أنت تقول القرآن مخلوق ونكون نحن الأشقياء ؟! قال : فأنزلنا من المحامل وصيرنا فى خيمة فما مضى الثلث الأول من الليل الا ونحن بصيحة وضجة واذا رجاء الحضاري قد أقبل علينا فقال : صدقت يا أبا عبد الله القرآن كلام الله غير مخلوق ، قد مات ــ والله ــ أمير المؤمنين وكان أن سمع دعاء الامام فى جوف الليل يقول : اللهم سدد خطاي واهدني سواء السبيل . قال : فلما صرنا الى (أذنه) ورحلنا منها وفتح لنا بابها لقينا رجل داخل ونحن خارجون فقال : البشرى قد مات الرجل . وكان الامام يدعو الله ألا يراه ، قال ابن الامام (صالح) : فصار أبى ومحمد بن نوح الى طرطوس وجاء نعي المأمون فردا فى أقيادهما الى « الرقة » وأخرجا من الرقة فى سفينة مع قوم محبسين فلما صارا «بعانة» توفي محمد بن نوح رحمه الله ــ وتقدم أبي فصلى عليه ثم صار أبي الى بغداد وهو مقيد فمكث «بالياسرية»

أياماً ثم صير الى الحبس في دار «ألتريت» عند دار «عمارة» ثم نقل بعد ذلك الى حبس العامة في «درب الموصلية» فمكث في الحبس منذ أخذ وحمل الى أن ضرب وخلي عنه ثمانية وعشرين شهراً ، قال أبى : فكنت أصلي بهم وأنا مقيد . وكنت أرى «بوران» يحمل له في دورق ماء بارداً فنذهب به اليه في المسجد « وبوران صديق لأحمد ومقرب لمدير السجن » .

وقد استمر أحمد في سجنه يؤم الناس ويرشدهم ويعلمهم الحديث ويظل على محبرته وورقته يدون فيها مسائله ويمحص فيها المتن والاسناد في الأحاديث ، وتفرغ لقراءة كثير من الكتب التى تقع في يده وكَتَبَ كثيراً .

وقد حاول المخلصون اخراجه من السجن ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل ، وبقي فقط عمه « اسحق ابن حنبل » يحاول ويتردد على من يظن أنه يستطيع أن يقول شيئاً ، وفى احدى زياراته لاسحق بن ابراهيم ألح عليه فأذن له بزيارته ، وبعث معه

حاجبه بعد أن أمره أن يسجل له كل كلمة يقولانها، قال عمه : ـ كما نقله المقريزى فى المقفى ـ : « فدخلت على أبي عبد الله ومعى حاجبه فقلت يا أبا عبد الله : قد أجاب أصحابك وقد أعذرت فيما بينك و بين الله و بقيت أنت فى الحبس والضيق فقال : يا عمى اذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل متى يتبين الحق فأمسكت عنه ، ثم قال وقد ذكر ما روى فى التقية ـ من الأحاديث كيف تصنعون بحديث (خباب) « ان من كان قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه » ؟ فيئسنا منه ، وقال : لست أبالى بالحبس ولا القتل بالسيف » وفى أثناء سجنه نقل الى دار اسحق بن ابراهيم وقد وصف ذلك الامام نفسه فيما نقله أبو نعيم فى الحلية هكذا : « حدثنا محمد بن جعفر وعلي بن أحمد والحسين بن محمد قالوا : حدثنا محمد بن اسماعيل حدثنا أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل قال : قال أبى رحمه الله : لما كان فى شهر رمضان ليلة سبع عشرة خلت منه حولت من السجن الى دار اسحق بن ابراهيم وأنا مقيد بقيد واحد فيوجه الي

فى كل يوم رجلان هما أحمد بن رباح وأبو شعيب الحجام يكلماني ويناظراني ، فاذا أرادا الانصراف دعي بقيد فقيدت به ، فمكثت على هذه الحال ثلاثة أيام ، وصار فى رجلى أربعة أقياد ، فقال لي أحدهما فى بعض الأيام فى كلام دار ، وسألته عن علم الله فقال : علم الله مخلوق فقلت : كفرت . فقال لى الرسول الذى يحضر معهم من قبل الخليفة هذا رسول أمير المؤمنين . فقلت : ان هذا قد كفر وكان صاحبه الذى يحضر معه خارجاً فلما دخل قلت : ان هذا زعم أن علم الله مخلوق فنظر اليه كالمنكر عليه ما قال . ثم انصرفا قال أبى : وأسماء الله فى القرآن والقرآن من علم الله فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن زعم أن أسماء الله مخلوقة فقد كفر . قال أبي : فلما كانت الليلة الرابعة بعد العشاء الآخرة ، وجه المعتصم (ببغا) الى (اسحق بن ابراهيم) يأمره بحملى فأدخلت على اسحق فقال لى : يا أحمد انها والله نفسك انه قد حلف ألا يقتلك بالسيف ، وأن يضربك ضرباً بعد ضرب وأن يلقيك فى موضع

لا ترى فيه الشمس ، أليس قد قال الله تعالى « انا جعلنــاه قــرآناً عربيــاً » أفيكون مجعولا الا وهو مخلوق ..؟ فقلت له : قد قال الله : «فجعلهم كعصف مأكول » أفخلقهم ..؟ فقال : اذهبوا به فأنزلت الى شاطيء دجلة ، وأحدرت الى الموضع المعروف (بباب البســتان).ومعي (بغا الكبير) ورسول من قِبَل اسـحق قال فقــال (بغا) لـ (محمد المحاربي) بالفارســية ، ما تريدون من هــذا الرجل ؟ قال : يريدون منه أن يقول : (القرآن مخلوق) فقال : ما أعرف شيئاً من هذا الا قول لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله وقرابة أمير المؤمنين من رسول الله، قال أبي : فلما صرنا الى الشط أخرجت من الزورق، فجعلت على دابة والأقيــاد عليّ ، وما معي أحــد يمسكني ، فجعلت أكاد أخر على وجهي ، حتى انتهى بي الى الدار فأدخلت ، ثم عرج بي الى حجرة فصيرت في بيت منها وغلق عليّ الباب ، وأقعد عليه رجل ، وذلك في جــوف الليــل وليس في البيت سراج ، فاحتجت الى الوضوء فمددت يدي أطلب شيئاً فاذا أنا باناء فيه ماء وطست فتهيأت للصلاة وقمت أصلي» .

المنــاظرات :

لم يكن المعتصم يعرف الامام أحمــد بن حنبــل قبل ، ولكن أحمد بن أبى دؤاد ومن وراءه ، قــد موهوا على الخليفــة الجــديد ، وأغروه بأحمد ، وذكروه بما عهد به اليه المأمون : ولما امتلأ رأسه، وتشبع بفكرتهم ، رأوا أن يبلغــوا بالأمر نهايتــه فيواجهوا أحمد بالمعتصم وجهــاً لوجه ، علّ غضبة من الخليفة تريحهم من هذا المعــاند المتصلب الذي لم تجد فيه شتى الوسائل الاغرائية والارهابية ... فأقنعوا الخليفــة أن يعقــد لأحمد منــاظرات فى مجلسه ، يحضرها عدد من المتــكلمين . فاســتدعاه المعتصم لمجلســه ، ولمــا أُدخل عليه أول مرة بدا الارتباك والاستغراب على وجه المعتصم ، والتفت الى ابن أبى دؤاد وقال : « أليس قــد زعمتــم أنه حــدث السن ؟ هــذا شــيخ مكتهــل .. » ثم بدأت المناظرات بمقدمات بين الخليفة والامام ..

وهذه المناظرات فى الأيام المتتاليــة ، تعطينــا فــكرة صادقــة عن حقيقة الأمر ، وموقف كل من

الخصمين ونكتفي بايرادها من لفظ (أبى نعيم) فى (الحلية) حيث هو أجمع الروايات ، وقد اعتمد عليه أكثــر من كتب عن الامام أحمــد . قال : « فلمــا أصبحت جاءنى الرسول ، فأخــذ بيدي ، فأدخلنى الــدار ، واذا المعتصــم جالس ، وابــن أبى دؤاد حاضر ، وقد جمع أصحابه والدار غاصــة بأهلهــا فلما دنوت منه سلمت فقال لى : ادنه ادنه ، فــلم يزل يدنينى حتى قــربت منــه ثم قال لى : اجلس فجلست ، وقد أثقلتنى الأقياد ، فلما مكثت هنيهــة قلت : تأذن لى بالكلام .؟ فقال : تكلم . قلت : الام دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : الى شهادة أن لا اله الا الله . فقلت : أنا أشهد أن لا اله الا الله . ثم قلت له : ان جــدك عبد الله بن عباس يحكى أن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وســلم أمرهم بالايمــان بالله فقال : أتدرون ما الايمان بالله ؟ قالوا : اللهورسوله أعلم. قال : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله واقام الصلاة وايتــاء الزكاة وصوم رمضــان وأن تعطوا الخمس من المغنم (وســاق الحديث بسنده)

فقال لى : خذ ذلك لولا أني وجدتك فى يد من كان قبلى ما تعرضت لك ، ثم التفت الى عبد الرحمن بن اسحق ، فقال له : يا عبد الرحمن ألم يصـــدر أمر برفع المحنـــة ؟ فقلت فى نفسى : الله أكبر ان من هذا لفرجأ للمسلمين ولكنه قال : ناظروه وكلموه . فقال لى عبد الرحمن : ما تقول فى القرآن ؟ قلت : ما تقول فى علم الله ؟ فسكت وجعل يكلمنى هـــذا وهذا فأرد على هذا وأكلم هذا ، ثم أقول : يا أمير المؤمنين أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول به وأراه . فيقول ابن أبى دؤاد : أنت لا تقول الا ما فى كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..؟ فقلت له : تأولت تأويلا فأنتأعلم ، وما تأولت ما يحبس عليه ويقيد عليـــه . قال ابن أبى دؤاد : هو ــ والله ــ يا أمـــير المؤمنين ضال مضلمبتدع، وهؤلاء قضاتكوالفقهاء فسلهم . فيقـــول لهـــم المعتصـــم : ما تقولون .؟ فيقولون : يا أمير المؤمنين هو ضال مضل مبتدع . ولا زالوا يكلموننى وصوتى يعلو على أصـــواتهم ، فقال لى انسان منهم : قال الله « ما يأتيهم من ذكر

من ربهــم محــدث » أفيكون محدث الا مخلوق ؟.
فقلت : قال الله تعالى : «ص . والقرآن ذى الذكر»
فالذكر هو القرآن وتلك ليس فيها ألف ولا لام ..

وجعل ابن سماعة لا يفهم ما أقول ، فيقول لهم :
ما يقول ؟ فقالوا له : انه يقول كذا وكذا ، وقال
لى انسان منهم حديث (خباب) يا هناه : (تقرب الى
الله بما استطعت فانك لن تتقرب اليــه بشيء هو
أحب اليه من كلامه) . قلت : نعم هكذا هو .

وجعــــل ابن أبى دؤاد ينظـــر الي ويلحظنى
متغيظاً .. وقال بعضهم : أليس قال : (الله خالق
كل شيء) قلت قد قال : (تدمر كل شيء بأمر ربها)
فدمرت الا ما أراد الله . وقال بعضهم : فما تقول
فى حديث (عمران بن حصين) ؟ : (ان الله تعالى
كتب الذكر) فقال : « ان الله خلق الذكر » فقلت :
هذا خطــأ حدثنــاه غير واحد ان الله كتب الذكر .
وكان اذا انقطــع الرجــل منهم اعترض ابن أبى
دؤاد تكلم .. فلما قارب الزوال قال لهم : قوموا .

ثم احتبس عبــد الرحمن بن اســحق فخلى بى

وبعبد الرحمن فجعل يقول لى : أما تعرف صالحاً الرشيدي كان مؤدبى ، وكان فى هذا الموضع جالساً وأشار الى ناحية من الدار قال : تكلم ، وذكر القرآن فخالفنى فأمرت به فحبس ووطيء .. وقال لي : ما أعرفك ألم تكن تأتينا ؟ فقال له عبدالرحمن: يا أمير المؤمنين أعرفه منذ ثلاثين سنة يرى طاعتك والحج والجهاد معك ، وهو ملازم لمنزله . فجعل يقول : والله انه لفقيه وانه لعالم ، وما يسرني أن يكون مثله معي يرد على أهل الملل ، ولئن أجابنى الى شيء له فيه أدنى فرج لأطلقن عنه بيدى ولأطأن عقبه(١) ولأركبن اليه بجندى . ثم يلتفت الي فيقول : ويحك يا أحمد ما تقول ؟ قال فأقول : يا أمير المؤمنين أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلما طال بنا المجلس ضجر فقام فرددت الى الموضع الذى كنت فيه . ثم وجه الي برجلين هما ، صاحب الشافعي وأحمد بن غسان ، من أصحاب ابن أبى دؤاد ، يناظرانى

---

(١) يريد لاتبعنه واسير خلفه .

فيقيمان معى حتى اذا حضر الافطــار وجه الينــا بمائدة عليها طعام فجعلا يأكلان وجعلت أتعلل حتى ترفع المائدة . وأقاما الى غد . وفى خلال ذلك يجيء ابن أبى دؤاد فيقول لى : يا أحمد يقول لك الأمير ما تقول ؟ فأقول له : أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أقول به . فقال لى ابن أبى دؤاد : والله لقــد كتب اسمك فى السبعة فمحوته ، ولقد ساءنى أخــذهم اياك وانه ــ والله ــ ليس السيف انه ضرب بعد ضرب . ثم يقول لى ما تقول ؟ فأرد عليه نحواً مما رددت عليه، ثم يأتينى رسوله فيقول : أجب الرجل الذي أنزلت فى حجرته ، فيذهب فيعــود فيقول لى : يقول لك أمير المؤمنين ما تقول ؟ فأرد عليه نحواً مما رددت على ابن أبى دؤاد ، فلا تزال رسله تأتى أحمد بن عمار وهو يختلف فيما بينى وبينــه ، ويقــول : يقــول لك أمير المؤمنــين أجبنى حتى أجيء فأطلق عنك بيدي » .

وفى اليوم الثانى دخلت عليه فقال : ناظروه

وكلموه فجعلوا يتكلمون هذا من ها ههنا وهذا من ها ههنا فأرد على هذا وهذا ، فاذا جاءوا بشيء من الكلام مما ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فيه خبر ولا أثر قلت : ما أدرى ما هذا . فيقولون : يا أمير المؤمنين اذا توجهت له الحجة علينا وثب واذا كلمناه بشيء يقول لا أدرى ما هذا فيقول ناظروه ثم يقول : يا أحمد انى عليك شفيق ، فقال رجل منهم : أراك تذكر الحديث وتنتحله فقلت له : فما تقول في قول الله تعالى : «يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين» ؟ فقال : خص الله بها المؤمنين فقلت له : ما تقول ان كان قاتلا أو عبداً أو يهودياً أو نصرانياً ؟ فسكت وانما احتججت عليهم بهذا لأنهم كانوا يحتجون علي بظاهر القرآن ولقوله أراك تنتحل الحديث . وكان اذا انقطع الرجل اعترض ابن أبى دؤاد فيقول : والله يا أمير المؤمنين لئن أجابك لهو أحب الي من مائة ألف دينار ومائة ألف دينار فيعدد ما شاء الله من ذلك .

ثم أمرهم بعد ذلك بالقيام وخلا بي و بعبد الرحمن ابن اسحق فيدور بيننا كلام كثير وفى خـلال ذلك يقول تدعو أحمد بن أبى دؤاد فأقـول : ذلك اليك فيوجه فيجيء فيتـكلم ، فلما طال بنـا المجلس قام ورددت الى الموضـع الـذى كنت فيـه ، وجـاءنى الرجلان اللذان كانا عندى بالأمس فجعلا يتكلمان فدار بيننا كلام كثير ، فلما كان فى وقت الافطـار جيء بالطعام على نحو ما أتي به فى أول ليلة و تعللت وجعلت رسله تأتى أحمد بن عمـار ، فيمضى الي برسالة على نحو ما كان فى أول ليلة . ثم جاء ابن أبى دؤاد فقال : انه قد حلف أن يضربك ضرباً بعد ضرب ، وأن يحبسك فى موضع لا ترى فيه الشمس فقلت له : فما أصـنع ؟ حتى اذا كدت أن أصـبح قلت : لخليق أن يحدث فى هذا اليوم من أمرى شيء ، وقـد كنت أخـرجت تـكتي من سراويلى فشـددت بها الأقيـاد أحملها بها اذا توجهت اليـه ، فقلت لبعض من كان معي ممن وكل بى : أريـد خيطـاً فجاءنى بخيط فشددت بها الأقيـاد وأعدت التـكة

فى سراويلى ولبستها كراهيــة أن يحدث شيء من أمرى فأعترى .

فلما كان اليوم الثالث ، أ'دخلت عليــه والقوم حضور فجعلت أدخل من دار الى دار ، وقوم معهــم السيوف وقوم معهم السياط وغــير ذلك من الزي والسلاح ، وقد حشيت الدار بالجنــد ولم يكن فى اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء حتى اذا صرت اليه قال : ناظروه وكلموه . فعادوا بمثل مناظرتهم فدار بيني وبينهم كلام كثير حتى اذا كان فى الوقت الذى يخلو بى فيه نحانى ثم اجتمعوا وشاورهم ثم نحاهم ودعانى فخلا بى وبعبد الرحمن فقال لى : ويحك يا أحمد أنا والله عليك شفيق وانى لأشفق عليك مثل شفقتى على هرون ابنى فأجبنى . فقلت: يا أمير المؤمنين أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمــا ضجر وطال المجلس قال : عليك لعنة الله لقد كنت طمعت فيك خذوه خلعوه ثيابه اسحبوه قال : فأ'خِذت فسحبت ثم خلعت ثم قال : العقــابين والســياط . فجيء

بالعقابين والسياط وكان قد صار الي شعرتان من شعر النبي صلى الله عليه وسلم فصررتهما فى كم قميصى فوجه الي : ما هذا مصرور فى كم قميصك ؟ فقلت : شعر من شعر النبي صلى الله عليه وسلم وسعى بعض القوم الى القميص ليمزقه فى وقت ما أقمت بين العقابين فقال لهم : لا تخرقوه انزعوه عنه فظننت أنه درىء عن القميص الخلق لسبب الشعر الذى كان فيه . ثم صرت بين العقابين وشدت يدى وجيء بكرسي فوضع لى ، وابن أبى دؤاد قائم على رأسه والناس أجمعون قيام ممن حضر، فقال لى انسان ممن شدنى : خذ نابي الخشبتين بيدك وشد عليهما فلم أفهم ما قال . فتخلعت يدى لما شددت ولم أمسك الخشبتين . ثم قال للجلادين تقدموا فنظر الى السياط فقال : ائتوا بغيرها ثم قال : تقدموا . فقال لأحدهم : أدنه أوجع قطع الله يدك ، فتقدم فضرب سوطين ثم تنحى ثم قال : أدنه شد قطع الله يدك . فتقدم فضرب سوطين ثم تنحى فلم يزل يدعو واحداً بعد واحد فيضربنى سوطين ثم ينتحى . ثم قام حتى جاءنى وهم محدقون به .

فقال : ويحك يا أحمد تقتل نفسك ؟ ويحك أجبني أطلق عنك بيدى ، فجعل بعضهم يقول لى : تريد أن تغلب هؤلاء كلهم . وجعل اسحق بن ابراهيم يقول : ويلك الخليفة على رأسك قائم ، ثم يقول بعضهم : يا أمير المؤمنين دمه فى عنقى . ثم رجع فجلس على الكرسي ثم قال للجلاد : أدنه شد قطع الله يدك . ثم لم يزل يدعو جلاداً بعد جلاد وهو يقول : شد قطع الله يدك .. ثم قام الى الثانية فجعل يقول : يا أحمد . فجعل عبدالرحمن بن اسحق يقول لى:من صنع بنفسه من أصحابك ما صنعت ؟ هذا يحيى بن معين ، وهذا ابن خثيمة وابن أبى اسرائيل وجعل يعدد عليّ من أجاب ، وجعل هو يقول : ويحك أجبنى . وجعلت أقول نحواً مما كنت أقول لهم قال: فجلس ثم جعل يقول للجلاد : شد قطع الله يدك . فذهب عقلى فما عقلت الا وأنا فى حجرة مطلق عنى الأقياد . فقال انسان ممن حضر : انا كببناك على وجهك وطرحنا على ظهرك بادية ودسناك . فقلت: ما شعرت بذلك ثم جاءونى بسويق فقالوا لى : اشرب وتقيأ . فقلت : لا أفطر ثم جيء بى الى دار اسحق بن

ابراهيم فنودي بصلاة الظهر فصلينا الظهر فقـال ابن سماعة صليت والدم يسيل من ضربك فقلت : قد صلى عمـر رضي الله عنـه وجـرحه يثعب دماً فسكت . ثم وجه الى برجل من السجن ممن يبصر الضرب والجراحات ويعالج منها فنظر فقـال : أنا والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط ما رأيت ضرباً أشد من هذا ، ولقـد جـر عليـك من خلفك ومن قدامك . ثم أدخل ميلا فى بعض تلك الجـراحات وقال : لم ينقب . فجعل يأتي ويعالجه . وقال : ان ههنا شيئاً أريد أن أقطعه فجاء بحديدة فجعل يعلق اللحم بها ويقطعه بسكين معه » ..

هذه مناظرات تعطى القارىء فكرة كاملة عن المحنة ، وموقف الامام أحمد وموقف ابن أبى دؤاد أوردناها من لفظ ابن أبى نعيم فى الحلية لأنهـا أجمع وهى المصـدر الذى نقل عنه أكثر الكاتبين والمتحدثين فى هذا الأمر .. وبعد قراءتها نرى أن النتيجة تؤيد ما ذكرناه فى مقدمة هذه المناظرات وفى حقيقة المحنة ..

وقد توفي المعتصم وحمـل ابنه الواثق فـكرته واستمر في تعقب من يعارض القول بخلق القرآن. لكنه في آخر حياته اقتنع من عـدم جـدوى القول بخلق القرآن وكاد أن يرجع عنه لكنه استمر تعصباً لرأيه .

لطيفـة :

من لطائف المجادلة في هذا الأمر الذى امتحن به العلماء والفقهاء أن الواثق يحضر مجادلة ابن أبى دؤاد وأعوانه للنـاس . فلما جاء دور محمـد بن عبد الرحمن . وهو شيخ كبير قال له ابن أبىدؤاد: وأنت أيها الشيخ ما تقـول فى خلق القرآن وقـد سمعت رأي أمير المؤمنـين فى ذلك ؟ قال : لا أدري ماذا تعنى ؟ قال : هو القرآن مخلوق . قال الشيخ : « ان هذا الذى تطلب منى شيء لم يدع اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي فما تدعو الناس أنت اليه لا يخلو أن تقول علموه أو جهلوه فان قلت علموه وسكتوا عنه وسعنى واياك من السـكوت ما وسع القوم ،

وان قلت جهلوه وعلمته أنت . فيا لكع بن لكع يجهل النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم شيئاً وتعلمه أنت ؟ فأفحم ابن أبى دؤاد . وسر الواثق وضحك حتى استلقى على قفاه وقال : لقد غلبك الشيخ ، ولا وسع الله على من لم يسعه ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم أمر بالمناقشة فأقفلت ولم يحضر مناقشة بعد ذلك .

بريق الأمل بنهاية المحنة :

توفي الواثق وجاء المتوكل وفى أول عهده حاول ابن أبى داؤاد ومن معه ايغار صدر الخليفة على الامام ، والاستمرار بأخذ الناس بالقوة للقول بخلق القرآن لكن المتوكل كان متعقلا قد عاش كل زمن المحنة وكرهها فى قرارة نفسه ، فأحب الانسحاب من هذه الفتنة بحكمة وحسن تدبير . فطلب حضور الامام اليه وناقشه فى بعض مسائل أصولية وفقهية .. ثم دفع اليه ببعض المال طالباً توزيعه بمعرفته على الفقراء فوزعه الامام بحضور

رسول الخليفة على فقراء أولاد الصحابة والتابعين، وخرج يخبر سيده بما حدث ثم أحب الخليفة التأكد من الأمر قبل البث في رأيه ، فأمر عبيد الله بن يحيى أن يكتب الى الامام كتاباً يطلب اليه ايضاح رأيه في القرآن فرد الامام على الكتاب موجهاً الخطاب الى عبيد الله بن يحيى . وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أحسن الله عاقبتك أبا الحسن في الأمور كلها ودفع عنك مكاره الدنيا والآخرة برحمته ، قد كتبت اليك رضي الله عنك ، بالذى سأل عنه أمير المؤمنين بأمر القرآن بما حضرني ، وانى أسأل الله تعالى أن يديم توفيق أمير المؤمنين ، فقد كان الناس في خوض من الباطل ، واختلاف شديد ينغمسون فيه حتى أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين ، فنفى الله به كل بدعة ، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المجالس فوقع ذلك من المسلمين موقعاً عظيماً ودعوا الله لأمير المؤمنين ، فأسأل الله أن يستجيب(١) في أمير المؤمنين

---

(١) من هنا نعلم ان الامام لم يكن في يوم من الايام ضد السلطان بل انه يدعو له فيقول : « ما تمر ليلة الا وادعو لامير المؤمنين » .

صالح الدعاوى ، وأن يتم ذلك كله ، وأن يزيد في نيته ويمينه على ما هو عليه .. فقد ذكر عن عبدالله ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فان ذلك يوقع الشك في قلوبكم ، وذكر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن نفراً كانوا جلوساً بباب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : ألم يقل الله كذا ؟ وقال بعضهم : ألم يقل الله كذا ؟ فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج كأنما فقىء فى وجهه حب الرمان، فقال : « أفبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انما ضلت الأمم قبلكم فى مثل هذا انكم لستم مما ها هنا فى شيء ، أنظروا الذى أمرتم به فاعملوا به ، وانظروا الذى نهيتم عنه ، فانتهوا عنه » . وروي عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مراءاة فى القرآن كفر » وروي عن أبى جهيم رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تماروا فى القرآن فان مراءاة فيه كفر » وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

قَدِم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل فجعل عمر يسأل عن الناس فقال : يا أمير المؤمنين قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا فقال ابن عباس : فقلت: والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة قال : فزجرني عمر وقال : مه . فانطلقت الى منزلي مكتئباً حزيناً فبينا أنا كذلك اذ أتاني رجل فقال : أجب أمير المؤمنين فخرجت فاذا هو بالباب ينتظرني فأخذ بيدي فخلا بي وقال : ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفاً ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين : متى يتسارعوا هذه المسارعة يحتقوا ومتى ما يحتقوا يختصموا ومتى ما يختصموا يختلفوا ومتى ما يختلفوا يقتتلوا قال : لله أبوك ، والله ان كنت لأكتمها الناس حتى جئت بها .

وروي عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول : هل من رجل يحملني الى قومه فان قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي ؟
وروي عن جبير بن نفير قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : انكم لن ترجعوا الى الله بشيء أفضل مما خرج منه يعنى (القرآن) . وروي عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : جردوا القرآن ولا تكتبوا فيه شيئاً الا كلام الله . وروي عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : هذا القرآن كلام الله فضعوه مواضعه . وقال رجل للحسن البصري : يا أبا سعيد اني اذا قرأت كتاب الله وتدبرته كدت أن آيس وينقطع رجائى قال : فقال الحسن : ان القرآن كلام الله وأعمال بنى آدم الى الضعف والتقصير فاعمل وأبشر ... وقال فروة بن نوفل الأشجعي : كنت جاراً لخباب ، وهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فخرجت معه يوماً من المسجد وهو آخذ بيدى فقال : يا هناه تقرب الى الله بما استطعت فانك لن تقرب الى الله تعالى بشيء أحب اليه من كلامه .

وقال رجل للحكم بن عيينة : ما حمل أهل الأهواء على هذا ؟ قال : الخصومات .

وقال معاوية بن قرة وكان أبوه ممن أتى النبي

صلى الله عليه وسلم : اياكم وهذه الخصومات فانها تحبط الأعمال . وقال أبو قلابة ـ وكان قد أدرك غير واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تجالسوا أصحاب الأهواء أو قال أصحاب الخصومات فانى لا آمن أن يغمسوكم فى ضلالتهم ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون . ودخل رجلان من أصحاب الأهواء على محمد بن سيرين فقالا : يا أبا بكر نحدثك بحديث فقال : لا . فقالا : نقرأ عليك آية من كتاب الله فقال : لا . لتقومان عنى أو لأقومنه . قال : فقام الرجلان فخرجا . فقال بعض القوم : يا أبا بكر وما عليك أن تقرأ عليك أية من كتاب الله ؟ فقال : انى خشيت أن يقرآ علي آية فيحرفانها فيقر ذلك قلبى . وقال محمد : لو أنى أعلم أنى أكون مثلى الساعة لتركتهما .

وقال رجل من أهل البدع لأيوب السختياني : يا أبا بكر أسألك عن كلمة ؟ فولى ، وهو يقول ، بيده : ولا نصف كلمة . وقال طاووس بن طاوس لابن له ـ وتكلم رجل من أهل البدع ـ : يا بني أدخل

اصبعيك فى أذنيك حتى لا تسمع ما يقول . ثم قال : أشدد أشدد . وقال عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل . وقال حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه ـ وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقـوا الله معشر القـراء وخذوا طريق من كان قبلكم والله لئن استبقتم لقد سبقتم سبقاً بعيداً ولئن تركتموه يميناً وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيداً . وقـد قال الله تعـالى : (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) ، وقال : (ألا له الخلق والأمر) فأخبر بالخلق ثم قال : والأمر فأخبر أن الأمر غير الخلق . وقال تعالى : (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمـه البيان) فأخبر تعالى أن القرآن من علمه ، وقال : (ولن ترضى عنك اليهـود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير) وقال : (ولئن أتيت الذين أوتوا الـكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبـلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من

بعد ما جاءك من العلم انك اذاً لمن الظالمين) وقال :
(وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم
من بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا
واق) ، فالقرآن من علم الله وفى هذه الآية دليل
على أن الذى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو
القرآن لقوله : (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى
جاءك من العلم) وقد روي عن غير واحد ممن مضى
من سلفنا أنهم كانوا يقولون : القرآن كلام الله غير
مخلوق ، وهو الذى أذهب اليه لست بصاحب كلام،
ولا أرى الكلام فى شيء من هذا الأمر ، الا ما كان
فى كتاب الله ، أو فى حديث عن النبي صلى الله عليه
وسلم ، أو عن أصحابه أو عن التابعين فأما غير
ذلك فان الكلام فيه غير محمود » .

وبعد أن قرأ المتوكل هذه الرسالة ، بعث الى
الامام يحيى بن خاقان يقول له : « أمير المؤمنين
يقرئك السلام ويقول كيف أنت فى نفسك وكيف
حالك ؟ وقد أنست بقربك ويسألك أن تدعو له
فقال : ما يأتى عليّ يوم الا وأنا أدعو له .. ثم قال

له : قد وجه معى ألف دينار لك تفرقهـا على أهل الحاجة » فرفض قبولها .

ووجه اليه محمد بن عبد الله بن طاهـر يدعوه للزيارة فأبى وقال : قد أعفانى الخليفة من مقابلته .

عند ذلك اقتنع المتـوكل تمام الاقتناع بصـدق الامام واعتقاده الثابت الذى لا يتزعزع ولا يتحول . فأمر برفع المحنة عن الامام ، وبالتالى عن كل الناس وألغى كل التحكمات والترتيبـات التى اتخذت فى كل الجهات .. فأراح نفسه وأراح الناس من ورائه وكان فى ذلك فرج ونصر وانتصار للحق ولو طال عليه الأمد .

مدة المحنة :

بدأت هذه المحنة فى أخريات حياة المأمون عام ٢١٨ هـ وانتهت في خـلافة المتوكل عام ٢٣٤ هـ فكانت ستة عشر عاماً ، ابتلي فيها المسلمون وعلى رأسهم امام الصابرين : (أحمد بن محمد بن حنبل) ، وفرقت جماعة المسلمـين ، وكره العلماء بعضـهم

بعضاً ، وعمت الفتنة ، وتركت السُّنَّة مخافة أخذ المظهرين لها فى الفتنة . وهكذا الفتن تشمل وتعم، ويؤخذ بها البرىء ، ويستفيد منها ذوو الأغراض الخبيثة ، وتتعطل بسببها مصالح المسلمين ، نجانا الله منها .

فلسفة أحمد فى تصلبه لرأيه :

لا يجهل أحد ادراك الامام أحمد للموقف ، ومعرفته بالدين ، وفهمه لحكم الاكراه مع اطمئنان القلب وامكان القول بالتقية . لكنه لم يصر الى ذلك لأمور :

الأول : أنه قد ابتلي بهذا الأمر جماعة من العلماء ، كانوا أهل فضل وعلم ومكانة بين الناس، فتساقطوا أمام السلطة منهم من وافق مجاملة ، ومنهم من تكلم تورية ، ومنهم من نطق تقية : وقد ثبت أربعة منهم ثبات الراسيات الجبال ، ولم يذلوا ولم يهنوا ، وهم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، والقواريرى ، وسجاده . فقيدوا وضربوا

وأهينوا وغلت أيديهم بالحديد ، وبعد ليلة واحدة وافقهم سجادة على رأيهم فخلوا سبيله وبعد يومين ضعفت مقاومة القواريري ، فأجابهم الى ما يطلبون فتركوه . وبقي الاثنان مقيدين محمولين الى (طرطوس) لمقابلة المأمون فمات ابن نوح فى الطريق ، وبقي الامام أحمد وحده ، فهو فى هذا الأمر خلاصة الخلاصة وقد تيقنأنه إن لان أو تردد فسوف ينتهى كل أمل فى الوصول الى الحق ، وسيتقبل الناس هذه الفرية فى زمنه وبعد زمنه .

الثانى : ان الامام أحمد يعلم ما أعد الله من الأجر للصابرين على الابتلاء فى سبيله ، فكان يهون عنده التعذيب والتهديد والجوع .

الثالث : ان زهده فى الحياة وتقشفه واكتفاءه بما يسد رمقه قبل المحنة وحال اليسر ، مكنه من الصبر ، وتحمل البلاء والعذاب ، ولو كان مترفاً ومتلذذاً بالدنيا ومتعوداً على الناعم من العيش لما وقف أمام أربعة ملوك بقوتهم ومحاولة فرض سيطرتهم !

الرابع : ان البيئة التى كانت تحيط بالامام أحمد بقلوبها وأفئدتها ـ والا فقد فرقوا الناس من حوله ـ قلوب مؤمنة صادقة فقد زاره أول حبسه أحد المعذبين فى سبيل الله فقال : ابن الامام أحمد ما تراهم صانعين بك يا والدى ؟ فقال الامام أحمد : ما هو الا العذاب يا بني . فقال هذا الرجل: أيها الامام اصبر فان العذاب يهون فى سبيل الله ، وما هو الا سوط أو سوطان ثم لا تحس بالعذاب . فقويت معنوية الامام واحتقر السياط ولم يعد يخاف منها .

ولما حُمِل الامام الى الخليفة فى (طرطوس) ومر فى طريقه (الأنبار) عبر أبو جعفر الأنباري (الفرات) ووافاه وجلس معه قليلا فنقل حديثه (السبكي) فى (طبقات الشافعية) قال : « ذكر ابن الجوزى بسنده الى أبى جعفر الأنبارى ، أنه قال لما حمل الى المأمون أخبرت فعبرت الفرات ، فاذا هو جالس فسلمت عليه فقال : يا أبا جعفر تعنيت. فقلت : ليس فى هذا عناء وقلت له : أنت اليوم

رأس والناس يقتدون بك ، فوالله ان أجبت بخلق القرآن ليجيبن باجابتك خلق من خلق الله وان أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير . ومع هـذا فان الرجـل ان لم يقتلك تمت ، ولا بد من الموت فثق بالله ولا تجبهم الى شيء . قال : فجعل أبو عبدالله يبكي ويقول : ما شاء الله ما شاء الله . يعنى أن ذلك وافق ما فى نفسه وهكذا أحمد فى كل موقف .

تنبيه لا بد منه

قد يسأل المرء نفسه قبل أو بعد قراءة ما كتبنا عن المحنة وأسبابها ونتائجها فيقول : اذأ ما الفائدة من اثارة الفتنة . وما الذى يجنيه المتعصبون لهـا وناصروها ؟ والجواب : أولا : ان أول منتفع بها هو صـاحبها (ابن أبى دؤاد) ومن معـه ومن يدين بمذهبه من المعتزلة ، فهم يضمنون استمراريتهم فى القيادة وبقاء الكلمة فى أيديهم فيما يخص الدين والوظائف الدينية وهي منصب مهم وخطير .

وثانياً : اذا وجد من خلف المنتفعين بالرئاسـة والمناصب من يخطط لأهداف كبرى تنتهى بتفريق

المسلمين وبزعزعة عقيدتهم ، وباثارة الشكوك وايجاد الحيرة فهم قد استفادوا وحققوا أهدافهم .

وأمر ثالث ، لا ينبغى اغفاله ، وهو كسب المعتصم باستقطاب الناس تحت لوائه والزامهم بطاعته والتسليم بما يرى والطاعة لما يأمر والاسراع لما يرغب ، وهذه سياسة يهتم بها الملوك ويحسبون لها ألف حساب ، فاذا أقنعهم مفكر بحصول هذه النتيجة وافقوه على اتخاذ الخطوات والتدابير الموصلة اليها ، ولنقل ان المأمون قد شغله مرضه عن التفكير العميق فى الخطوات والنتائج ولكننا لن نفترض أو نتوقع أن يكون المعتصم قد انساق اليها انسياقاً . فان الثمن باهظ والطريق صعب ، ولو لم يكن يؤمل نتائج كبرى ومفيدة له لما أطلق لأصحاب المحنة المبالغة والاصرار وسلوك كل الوسائل لالزام الناس جميعاً بالقول بخلق القرآن ، وخاصة وأنهم كونوا لأنفسهم منزلة مستقلة قوية مؤثرة تلى مرتبة الخليفة .. وكانت الاجراءات التعسفية لا تخضع لكاتب الدولة ولا

للمستشارين ولا للمحاكم المعتـادة .. وأما الواثق فانه جاء بعـد أن تمكنت هـذه الفتنـة فما اهتم باستقطابها ولم يسـتطع مخالفتها .. مع اعتقاده حقيقة أنه ما كان ينبغى ابتلاء الناس بها ...

ولما جاء المتوكل كانت أدمغة ونفـوس المهتمين بالفتنة قد امتلأت والناس قد ملوا ترداد القـول واللت والعجن فيه . وكان المتوكل يرقب ما حصل وقد برم منه ، فانسحب بانتظام وسلم الله به البقية الباقية ... وبهذا نجيب عن السؤال الذى قد يبرز فى ذهن القراء والمتعمقين فى دراسة التاريخ والله أعلم ...

حقيقة المشكلة :

قلنا فى أول الأمر ان أعـداء الدين يندسـون وراء كل من يتوصلون به الى أهدافهم ، من أمير أو وزير أو امرأة أو خادم ، المهـم لديهم الوصول الى تحقيق أهدافهم ، واثارة الخـلاف وتوسيع الشـقة بين المسلمين وخاصة بين الملوك والأمراء والعلماء

وليس الهدف من هذه المحنة مجرد القول بخلق القرآن فقط ، بل ايجاد قدح فى أعز شيء لدى المسلمين يتعلق به دينهم وتترتب عليه حياتهم وهو موضوع شائك عرضة للخلط فيه والشك والتوهم .. وحقيقته .. أن القول بخلق القرآن يعنى أن القرآن حادث منفصل عن الله سبحانه وتعالى كأي مخلوق من مخلوقات الله تعالى ..

وهذا يجعل القرآن قليل القيمة لا يتصف بالميزات والقدسيات التى جعلها الله له وخصه بها . والقول بخلق القرآن ينتهى الى نفي صفة الكلام عن الله تعالى ، وانكار تكليم الله لموسى ولمحمد . والقول الحق هو قول أهل السُّنَّة والجماعة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق . تكلم الله به حقيقة وهو كلامه الى أن تقوم الساعة : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .. ومن هنا فان الحديث عن محنة الامام أحمد وجلائها للناس وعرضها ومناقشتها لا يخص الامام أحمد وحده ، ولا يهم أتباعه دون سواهم

ولكنه يشمل كل المسلمين ، لأنه لو انهزم جميع المتحنين أمام دعاة هذه الفتنة لا نهد ركن عظيم من أركان الاسلام ، ولكان بوسع أي صاحب فكرة أو بدعة أن ينمقها ، ويبحث عن ركن شديد يحميها ثم يبثها ويلزم الناس بالأخذ بها ، ولو لم يحتمل تلكم المحنة أحمد لأتى الاسلام من مأمنه ، ولهدت جميع حصونه وانتهكت كل ثغوره ، ولكن الله قواه ورزقه الاحتمال ، وأكرمه بهذه الصفة : (وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) وقد حرصت على ايراد مراحل المحنة كما هي بياناً لها . وعرضاً لتاريخ جهاد الامام وصبره وغزارة علمه وقوة تمسكه وتحرزه من الوقوع بما يفهم منه معارضة الدين .

ثم هي بعد ذات طابع علمي بحت فيه فائدة للقاريء وتصحيح لأمر لا يجهله جميع المسلمين ولكن حقيقته لا يدركها سوى القليل منهم .

والله حسبنا ونعم الوكيل ...

أحمد بن أبي دؤاد الأيادي الجهمي :

ان من يتحدث أو يؤرخ للامام أحمد بن حنبل لا بد أن يذكر (ابن أبى دؤاد) ، لأنه مخترع الفتنة وحاميها والداعى لها .

وهو رجل عالم مفكر لا شك فى ذلك ، لكن رغبته فى الجاه والمنصب ، والقرب من الملوك ، والحصول على صلتهم وثقتهم ، جعلته يحاول الوصول الى ذلك بأي طريق ـ ولو كان على حساب الدين ـ أو الاضرار بشخص آخر ، وهذا ما حدث فى موضوعنا هذا .

فان ابن أبى دؤاد قد صعد على أشلاء المعذبين الى أعلى مناصب مناسبة له فى الدولة ، حتى استطاع أن يؤثر على الملوك ، ويقنعهم بحمل هذه الفكرة والزام الناس بها ..

وتذكر عنه كتب التاريخ أنه متعصب عنيد حاقد عديم الرحمة والرأفة بالمسلمين . حيث يتفوه أثناء المحاكمة بكلمات بشعة ويطلق عبارات قد تتسبب

فى قتل خصمه ، وافتراضه أن كل من لم يقل بخلق القرآن فهو ضد الدولةوالخليفة شخصياً وعدو له ..

وهذا مبدأ خطير يمس قاعدة الحكم وأساسه . والا فما الذى يجعل شخصاً لا يعرف الخليفة ، ولم يقابله مرة ، وليس بينه وبينه تعامل ، ولم يمنعه شيئاً أعطاه لغيره ، ما الذى يجعله عدواً له شخصياً ؟ ان هذا ما لا تقبله العقول والفطر السليمة .

وهب أن شخصاً أخطأ خطأ مقصوداً ، فان فعله ينحصر فيما أخطأ فيه ، وعقوبته تتحدد تبعاً لذلك، ولا تنسحب الى سواه ، مما هو بعيد كل البعد عن التصور والوقوع

وهذا ما لم يرضه ولم ينهجه ابن أبى دؤاد ، الذى أصبح فى يوم من الأيام قاضياً وحاكماً فى آن واحد ، بحيث يستخدم سلطته القضائية وينفذها بقوة السلطان .

ولا يفوتنا أن ننبه الى أنه برغم ما حصل من اساءة ابن أبى دؤاد الى الامام أحمد ، فانه ــ رحمه

الله ـ لم يقل شيئاً بسوء عن ابن أبى دؤاد ، وما دعا عليه مرة واحدة .. ولم يصفه شخصياً بأى وصف شائن .. بعكس ابن أبى دؤاد الذى لم يترك مجالا للحط من منزلة الامام الا اتخذه سرأ وعلانية !

نهاية الظالم :

كانت نهاية ابن أبى دؤاد الخزي والعار والمرض. فقد أُنزل من منصبه وأصابه الفالج فى آخر حياته . وأبغضه الناس جميعاً . ويقال ان (عبد العزيز بن يحيى المكي) ، دخل عليه فى مرضه فقال له : انى لم آتك عائداً ولكنى جئت لأحمد الله تعالى على أن سجنك فى جلدك ..

ويصف نهايته (ابن شراعة البصري) الشاعر فيقول :

أفلت نجومك يا ابن أبى دؤادِ
وبدت نحوسك فى جميع اياد

فرحت بمصرعك البرية كلها
من كان منها موقناً بمعاد

لم يبق منك سوى خيـــال لامع
فوق الفــراش ممهــداً بوساد

وخبت لدى الخلفاء نارك بعـد ما
قـد كنت تقـدحها بكل زناد

لم تخش من رب السماء عقــوبة
فســـننت كل ضـــلالة وفساد

كم من كريمـــة معشر أرملتها
ومحــــدث أوثقت بالأقياد

كم من مساجد قـد منعت قضاتها
من أن يعدل شـــاهداً برشاد

لا زال فالجـــك الذى بك دائمـــا
ومحقت قبـــل المــوت بالأولاد

آثار المحنة وفوائدها :

ان ما حـدث خلال سنوات ستة عشرة من المحنة والابتلاء يجعل العاقل يفكر فيما بعد ذلك ، وماذا يستفيد المسلمون منها ! ولو أردنا استخلاص كل

الفوائد لاحتجنا لمجد ضخم ، ولكننا نجتزىء هنا أموراً رئيسية منها :

أولا : وجود فئة من الناس فى كل عصر تميل الى الشر وتقصده لأنها مجبولة عليه ، فهى لا يهدأ لها بال اذا لم تشغل نفسها فى الشر وفى التشفى بالناس وايذائهم..وهذه الجبلة تتخذ طابعاً يناسب كل بيئة . تبدأ بالنميمة والغيبة والحسد .. ثم تتحول عند ممارسة شهوتها الى النفاق ثم تنتهى الى التشفى وتعذيب أهل الحق والخير على المستوى الفردي أو الجماعي حتى ان بعض أهل هذه الطباع يؤذون أنفسهم وأهليهم والملتصقين بهم ..

ثانياً : استخدام الوسائل الشرعية والعرفية المقبولة لدى الناس فى الوصول الى الأهداف الشريرة .. ومن هنا وجب على قادة المسلمين التعمق فى فهم الأمور والغوص الى حقائقها حتى لا يخدعوا وتكون الضحية مصلحة المسلمين ودينهم ...

ثالثاً : انتصار الحق مهما خيمت أو ظللت سحابة الباطل فان الحق أبقى وأبلج .. وقد وعد الله بنصر

الحق وأهله .. ولو كثر أهل الشر وطالت شوكتهم قدواً من الزمن.. وما انتصار الامام أحمد ــ رحمه الله ــ سوى نموذج لهذه الحقيقة . ولكن على المسلمين أن يفهموها . وأن يثقوا من وعد ربهم ويتمسكوا بدينهم والعاقبة لهم ...

رابعاً : أهمية العلماء المحققين النزيهين وعظم مسئوليتهم أمام الله تعالى ثم أمام الأمة . وان المسئولية تقع على أعناقهم لحماية دين الله ونشره فى المعمورة والحفاظ على مصالح الأمة .. واثبات أن الحكام يرجعون الى رأيهم ويأخذون بمشورتهم وأن الناس يتبعونهم ولا يخرجون عن ارشادهم ، ولكن بشرط أن تكون أخلاقهم أخلاق العلماء ، وأن تكون سيرتهم سيرة الرجال الصالحين . أما ان يتسابقوا على المناصب ، أو يسيل لعابهم اذا رأوا صفرة الدينار ، أو ينساقوا مع لين الحياة وبريقها وترفها، فهذا هو ما يذلهم ويمنع الحكام من طاعتهم ، وقبول مشورتهم ، ويبعد عنهم العامة ...

ولم يكن التاريخ ، ولم يفكر علماء المسلمين

الأول ، بأن رجلا ينسب الى العلم يعمل أعمال العامة ، أو يمتهن حرف السفلة . أو يسابق الطماعين الى مطامعهم .. ولن ننساق فى هذا هذا الموضوع المهم ، بل نكتفى بالحقيقة التي يعرفها العلماء والتى سجلها العالم القاضى (أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجانى) :

يقولون لى فيك انقباض وانما
رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

أرى الناس من داناهمو هان عندهم
ومن أكرمته عزة النفس أكرما

وما كل برق لاح لى يستفزنى
ولا كل من لاقيت أرضاه منعما

وانى اذا ما فاتنى الأمر لم أبت
أقلب كفى اثره متندما

ولم اقض حق العلم ان كان كلما
بدا طمع صيرته لى سلما

اذا قيل هذا منهـــــل قلت قد أرى
ولـكن نفس الحـر تحتمـل الظما
ولم أبتذل فى خـدمة العـلم مهجتى
لأخـدم من لاقيت لـكن لأُخدما
أأشقى به غرسـاً وأجنيـه ذلة
اذاً فاتبـاع الجهـل قـد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صـانوه صـانهم
ولو عظموه فى النفـوس لعظما
ولكن أهانوه فهـان ودنسـوا
محيـاه بالأطمـاع حتى تجهما

حقاً ان هذا سر باق فى كل زمان ، وفى زمننـا هذا انتسب الى العـلم والعلمـاء أناس لا يعرفون العلم الحقيقي ، ولا ما يوصل الى العلم من المعانى والسلوك والمادة العلمية ، فمنهم من لا يعرف النحو والتصريف ويقول انه عالم ، ومنهم من لم يقرأ مثل هذه المناظرات والامتحانات ، وحتى لم يقرأ هذه التحفة الشعرية وان قرأها لم يدر معناها . فكيف يكون مثل هذا سداً منيعاً أمام الفـتن والبـدع ؟

وكيف يكون قدوة لغيره ومثلا يحتذى ؟ ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

خامساً : ان البلاء والمحن تقع على عاتق سراة الناس من الملوك والعلماء وأهل الحـل والعقد فى الأمة ، لأنهم هم الهدف ، وهم خلاصة الأمة ، اليهم يرجـع الأمر ، وبهم يقضى ، وعندهم ينتهى . ولا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم . وهـذا يعنى أن نحرص على انتقاء القـادة ، بحيث يكونون أهـلا لتحمل البلاء عن بقية الأمة ، وأمناء بحيث تطمئن الأمة لرأيهم وتتبعهم فيما يدبرون ويدعون اليه.. وعلينا أن نحذر من الذين يصطادون فى الماء العكر وينتحلون لكل زمان لبوسـه ، حتى يحتلوا المنزلة العالية لدى الحكام والعلماء ، ليصلوا الى أهدافهم ومطامعهم الخاصـة . ولا تهمهم بعد ذلك مصـالح المسلمين .

وفاته ومراثيه

وفاة الامام :

ضعف الامام فى آخر حياته ، واحتبس فى بيته . وفى آخر أيامه أصيب بالحمى التى أثخنته، وعلم الناس بذلك فتقاطروا لزيارته حتى تكاثروا فاضطر أولاده وأصحابه لوضع حراسة على الدرب والدار لمنع الناس . وفى مرضه أمر ابنه أن يفتح كيس نقوده فلم يجد سوى درهم واحد ، أمره أن يزيده من أجر داره ، وأن يتصدق بتمر كفارة يمين حنث فيها . وقد استمر يؤدى الصلاة حتى آخر لحظة من حياته . وأوصى بأن توضع الشعرات التى وصلت اليه من شعرات رسول الله صلى الله عليه وسلم على فمه وعينيه .. وقد توفي رحمه الله ـ يوم الجمعة الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ٢٤١ عن سبع وسبعين سنة .. قضاها فى العلم والعبادة والجهاد .

ولما قربت وفاته أمر ابنــه أن يحضر وصيته التى سبق أن كتبها ويقرأها عليه وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هــذا ما أوصى به أحمد بن حنبل ، أوصى بأنه يشهد أن لا اله الا الله وحــده لا شريك له ، وأن محمــداً عبــده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركــون .. وأوصى من أطاعــه من أهــله وقرابته أن يعبدوا الله فى العابدين ، ويحمدوه فى الحامدين . وأن ينصحوا لجماعة المسلمين . وأوصى أنى قد رضيت بالله رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً . وأوصى أن (لعبد الله بن محمد المعروف ببوران) عليّ نحواً من خمســين ديناراً ، وهو مصدق فيما يقول، فيقضى ما له عليّ من غلة الدار ان شاء الله ـ فاذا استوفى أعطى ولد صالح وعبد الله ابنا أحمد بن حنبل كل ذكر وانثى عشرة دراهم بعــد وفاء مال أبى محمــد . شــهد أبو يوسف وصالح وعبد الله أبناء أحمد بن محمد بن حنبل » .

ولما توفي أطبقت بغداد كلها لشهود جنازته التى جهزت بعد الظهر بما فيهم الحاكم والعلماء وسلالة الهاشميين والصحابة والتابعين .. فقيل ان من شهد الصلاة وتبع الجنازة يقدر بألفى ألف وخمسمائة ألف .. وقيل حضر مع ذلك ستون ألف امرأة وأسلم يوم وفاته عشرون ألفاً من ديانات مختلفة . وفتحت البيوت كلهـا للوضوء والانتظار ودفن فى مقبرة (باب حـرب ببغـداد) وما زال قبره معروفاً الى أوائل القرن التـاسع الهجري . فرحمه الله ورضي عنه وجزاه عن المسلمين خير الجزاء .

رثاء الامام :

نذكر أننا قلنا فيما سبق أنه أُلـِّفـَت الكتب عن الامام ، وجمع أناس ما قيل عنه بعد وفاته ، وما رؤى له من الرؤى ، ولـكنا أعرضـنا عـن ذلك ، ونكتفى الآن بقصيدة واحدة قالها جعفر السراج :

سقى الله قبراً حل فيه ابن حنبـل
من الغيث وسـمياً عـلى اثره ولى

على أن دمعى فيــــه روى عظـــامه
اذا فاض ما لم يبـــل منــه وما بلى

فلله رب النـــــاس مذهب أحمـــد
فـــان عليـــــــه ما حييت معولى

دعوه الى خــلق القرآن كمــا دعـــوا
ســـواه ، فــلم يتبـــع ولم يتأول

ولا رده ضرب الســـياط وســـجنه
عن السُّنَّة الغـــراء والمـذهب الجلى

ولمـــا يزدهم ـ والســـــياط تنوشه
فَشُلَّت يمــــين الضــــارب المتقتل

على قوله : القرآن ـ وليشهد الورى ـ
كـــلامك يا رب الورى كيفمـــا تلى

فمـــن مبـــلغ أصـــحابه اننى به
أفاخـــــر أهـــل العلم فى كل محفل

وألقى به الزهاد فى كـــل مطـــلق
من الخـــوف دنيـاه طـــلاق التبتل

مناقبـــــه ان لم تكن عالمـــاً بهـــا
فكشف طروس القـــوم عنهن واسأل

لقد عاش فى الدنيا حميـداً موفقـاً
وصـــار الى الأخـرى الى خـير منزل

وانى لراج أن ينـــــور الله قلب من
اذا ســـألوا عن أصـله قال : حنبلى

الأئمة الأربعة ومذاهبهم :

لم يكن هدفنا فى هذا البحث الحديث عن أحـد من الأئمة سوى الامام أحمد ، ولكن لا بد لنا هنا من اثبات أمر مهم ننتفع به ، وهو رأي الأئمة بعضهم ببعض ويتمثـل ذلك فيمـا بين الامام (محمد بن ادريس الشـافعي) والامام (أحمد بن محمد بن حنبل) لتعاصرهما زمناً . فان أحمد قد أخـذ عن الشـافعي ، وتتلمذ عليه فى (بغداد) وفى (مكة المكرمة) ، وهذا لم يمنع الشـافعي أن يأخـذ عن أحمد .. ولندع الامامين يحدثانا عن هـذا الموقف الحساس بالنسبة لبعض أتباع بعض الأئمة :

يقول الامام أحمد : « ما من أحد مس بيده محبرة وقلماً الا وللشافعي فى عنقه منة .. » . وقد بقى ثلاثين سنة يدعو للشافعي كل ليلة ويستغفر له حتى ان أحد ولده قال له : أي رجل هذا الشافعي حتى تدعو له هذا الدعاء ؟ فقال الامام أحمد : « ان الشافعي كان كالشمس للدنيا وكالعافية للناس » .

وبالمقابل كان الامام الشافعي يقول : « يا أبا عبد الله اذا صح عندكم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرونا به حتى نرجع اليه » وقال له مرة : « أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا ، فاذا كان خبر صحيح فأخبرنى حتى أذهب اليه كوفياً كان أو بصرياً أو شامياً .. » وقال عبد الله بن أحمد : جميع ما حدث به الشافعي فقال حدثنى الثقة أو أخبرنى الثقة فهو أبى ـ رحمه الله ـ ...

ومن هنا فلعل الاخوة المتعصبين للمذاهب فى الأمور الفرعية الذين يختلفون حتى يبلغ بهم الاختلاف الى التشاحن والتفرق يدركون هذه الحقيقة عن الامامين ـ وكان مثلهما تماماً عن

الامامين (مالك وأبى حنيفة) ، حتى اذا عرف ذلك أتباعهم خففوا من غلوائهم ، وعلموا محبة بعضهم بعضاً وعدم اختلافهم فى الأصول مطلقاً . وانهم جميعاً كانوا يقولون : اذا وافق قولى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذوه واذا عارضه فاضربوا به عرض الحائط . وانهم لم يكونوا ليعلموا أن الناس سيقلدونهم تقليداً يفرق بين المسلمين . ويبعد بعضهم عن بعض الى درجة أن لا يقبل المالكي من الحنفي ، والشافعي من الحنبلي، ولا يصلى بعضهم خلف بعض .. فلو علموا ذلك لأنكروه أشد النكران ، ولبرئوا منه .

وبعد ذلك على المسلمين أن يهتموا بالعقيدة وبمشكلاتهم الكبرى ، بدل أن يختلفوا على المفردات، أو فرعيات القياس ، أو وضع اليدين فى الصلاة تحت السرة ، أو على الجانب الأيسر ، أو فى الوسط فيما بين السرة والصدر . وألا ينسبوا هذا التعصب الى الأئمة رحمهم الله ..

المذهب الحنبلي

مذهب أحمد :

لم يكن أحمد يريد أن يكون له مذهب خاص ينسب اليه ولا يختص به عن سواه ، وعلامة ذلك أنه لم يسجل سوى المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ينهى أن يكتب عنه شيء ماعدا رسائل كتبها اجابة لطلب ملح .. ولكنه حينما نبغ فى العلم ، وقصده الناس للأخذ عنه والارتواء من معين علمه ، سجل تلاميذه ما أخذوه عنه ، ثم سجلوا مسائله وحققوا فيها ونقحوها فجمعوها ودونوها . والكتب المعروفة الآن هي من تأليف الجيل التالى لأصحاب أحمد ، الذين أخذوا عن أصحابه مسائله ..

وقد عقد صاحب (المدخل الى مذهب الامام أحمد بن حنبل) عقداً خاصاً أسهب فيه عن بيان السبب الذى اختار كثير من كبار العلماء مذهب

الامام أحمد على مذهب غيره ننقل بعضه قال : « هذا العقد له مدخل عظيم لمن يريد التمذهب بمذهب أحمد وما ذلك الا لأن الداخل على بصيرة فى شيء أعقل من الداخل فيه على غير بصيرة وأبعد عن التعصب والتقليد المحض ، وكل انسان يختار لمطعمه وملبسه وحوائجه الضرورية ، فلأن يختار ويحتاط لدينه أولى ، ولما كان المقلد لا رأي له ولا ترجيح ، وانما نصيبه من العلم أن يقول قالوا فقلنا أثبتنا له هذا العقد ليتزين به ، ونصبنا له هذا السلم ، أملا بأنه ان ترك التعصب الذميم والجهل المركب ، ارتقى قليلا الى درجات أوائل العلم ، ولاح له لمعان من نور الهدى ، فيجره اختيار المذهب الى اختيار بعض الفروع بالدليل والبرهان فيكون حينئذ من المفلحين ويتزحزح عن نار الغفلة ، والتقليد الأعمى المذموم على لسان كل عاقل له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . واليك بيان ما نوهنا به وأشرنا اليه :

قال الامام الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن

الجوزى أحد المجتهدين فى مذهب أحمد ، فى كتاب المناقب فى الباب السابع والتسعين منه : « اعلم وفقك الله انه مما يتبين الصواب فى الأمور المشتبهة لمن أعرض عن الهوى والتفت عن العصبية ، وقصد الحق بطريقة ولم ينظر فى أسماء الرجال ولا فى صيتهم فذلك الذى يتجلى له غامض المشتبه . فأما من مال به الهوى فعسير تقويمه . واعلم اننا نظرنا فى أدلة الشرع وأصول الفقه ، وسبرنا أحوال الأعلام المجتهدين فرأينا هذا الرجل (الامام أحمد) أوفرهم حظاً من تلك العلوم ، فانه كان من الحافظين لكتاب الله عز وجل ، وقرأه على أساطين أهل زمانه ، وكان لا يميل شيئاً فى القرآن ويروى قوله صلى الله عليه وسلم : (أُنزل القرآن فخماً ففخموه) وكان لا يدغم شيئاً فى القرآن الا (اتخذتم) ويمد مداً متوسطاً . وكان رضي الله عنه من المصنفين فى فنون القرآن ؛ من التفسير والناسخ والمنسوخ والمقدم والمؤخر فى القرآن وجوابات القرآن ، والمسند وهو ثلاثون ألف حديث . وكان يقول لابنه عبد الله : احتفظ بهذا المسند فانه سيكون للناس

اماماً .. والتاريخ ، وحـديث شـعبه ، والمناسك الكبير والصغير، وأشياء أخرى .وقال عبد الله : قرأ أبى علينا المسند وما سمعه منه غيرنا . وقال لنا : هذا كتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة ألف حديث فما اختلف المسلمون فيـه من حـديث رسول الله فارجعوا اليـه ، فان وجدتموه فيه والا فليس بحجة .. قال ابن الجوزى : وأما النقل فقـد سلم الكل له بانفراده فيه ؛ بما لم ينفرد به سواه من الأئمة من كثرة محفوظه منه ، ومعرفة صحيحه من سقيمه ، وفنون علومه . وقد ثبت أنه ليس فى الأئمـة الأعـلام قبله من له حظ فى الحديث كحظ مالك ومن أراد مقام معرفة أحمد فى ذلك من مقام مالك فلينظر فـرق ما بين المسـند والموطأ . وقال ابنه عبد الله : سمعت أبا زرعة يقول : كان أحمد ابن حنبـل يحفظ ألف ألف حـديث . فقيل له : وما يدريك ؟ قال : ذاكرته فأخذت عليه الأبواب . وقيل لأبى زرعة : من رأيت من المشايخ المحـدثين أحفظ ؟ فقال : أحمـد بن حنبـل حزمت كتبه فى اليـوم الذى مات فيـه ، فبلغت اثنى عشر حملا .

وعزل ما كان على ظهر كتاب منها حديث فلان وفى بطنها حدثنا فلان وكل ذلك كان يحفظه أحمد عن ظهر قلب . قال ابن الجوزي : وكان أحمد يذكر الجرح والتعديل من حفظه اذا سئل عنه ، كما يقرأ الفاتحة . ومن نظر فى كتاب العلل لأبى بكر الخلال عرف ذلك ، ولم يكن ذلك لأحد من الأئمة . وكذلك انفراده فى علم النقل بفتاوى الصحابة وقضاياهم واجتماعهم واختلافهم لا تنازع فى ذلك . وأما علم العربية فقد قال أحمد : كتبت من العربية أكثر مما كتب أبو عمرو الشيباني . وأما القياس فله من الاستنباط ما يطول شرحه . قال أبو القاسم ابن الحنبلي : أكثر الناس يظنون أن أحمد انما كان أكثر ذكره لموضع المحنة ، وليس هو كذلك كان أحمد بن حنبل اذا سُئِل عن المسألة كان علم الدنيا بين عينيه .. قال الخلال : كان أحمد قد كَتَبَ كُتُب الرأي وحفظها ثم لم يلتفت اليها ، وكان اذا تكلم فى الفقه تكلم كلام رجل قد انتقد العلوم فتكلم عن معرفة .

قال ابن الجوزي : وقد كان الشافعي عالماً بفنون العلوم الا أنه سلم لأحمد علم النقل الذى عليه مدار الفقه .. قال ابن الجوزي بعد ان أورد كثيراً من هذا الباب : « هذا قدر الانتصار لاختيارنا لمذهب أحمد ورحمة الله على الكل ، وللناس فيما يعشقون مذاهب . اهـ » .

ثم ذكر مؤلف المدخل أئمة التابعين لأحمد وذكر فضلهم ، ثم عقد عقداً ثالثاً عنونه بقوله : (العقد الثالث فى ذكر أصول مذهبه فى استنباط الفروع وبيان طريقته فى ذلك) أما طريقة الامام فى الأصول الفقهية فقد كانت طريقة الصحابة والتابعين لهم باحسان لا يتعدى طريقتهم ولا يتجاوزها الى غيرها ، كما هي عادته فى مسالكه فى التوحيد والفتيا فى الفقه ، وفى جميع حركاته وسكناته ، وكما تقدم لك آنفاً ما كان عليه من الاعتقاد ، وكما سنبينه فى مسالكه من الاجتهاد . وحيث علمت ذلك فاعلم انه صرح المجتهدون من أهل مذهبه التابعين له فى الأصول ، أن فتاواه

رضي الله عنه مبنية على خمسة أصول (بَيَّنَهَا بالتفصيل) فنذكرها جملة : الأول : اذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت الى ما خالفه . الثانى: من أصول فتوى الامام أحمد ما أفتى به الصحابة الثالث : اذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم ما كان أقربها الى الكتاب والسنة . الرابع : الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف اذا لم يكن فى الباب شيء يدفعه، وهو الذى رجحه على القياس . والحديث الضعيف عنده قسيم الصحيح ، وليس المراد به الباطل أو المنكر ولا ما فى روايته منهم . الخامس : القياس كان أحمد يستعمله للضرورة ففى كتاب الخلال عن أحمد قال : سألت الشافعي عن القياس فقال : انما يصار اليه عند الضرورة

رأي الامام :

لم يكن للامام أحمد رأي يخالف رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعين لهم باحسان .. فقد كان يحفظ أحاديث رسول الله وفعله وتقاريره . ويعلم فتاوى الصحابة والتابعين، فكان

يحرص عليها كثيراً . وفيما لم يكن نصاً كان رأيه رأي جمهور المسلمين ... وقد نقلنا رأيه بالتفصيل في القرآن .. وهنا نورد شيئاً من كلامه ورأيه السياسى المستمد من السُنَّة قال : « والسمع والطاعة للأئمة ، وأمير المؤمنين ؛ البر والفاجر ، ومن ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به ، ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين ، والغزو ماض مع الأمراء الى يوم القيامة البر والفاجر ، وقسمة الفيء ، واقامة الحدود الى الأئمة ماض ليس لأحد أن يطعن عليهم، ولا ينازعهم، ودفع الصدقات اليهم جائز نافذ ، من دفعها اليهم أجزأت عنه ، براً كان أو فاجراً ، وصلاة الجمعة خلفه ، وخلف كل من ولي جائزة امامته ، ومن أعادها فهو مبتدع تارك للآثار ، مخالف للسُنَّة ليس له من فضل الجمعة شيء ، اذا لم ير الصلاة خلف الأئمة من كانوا برهم وفاجرهم فالسُنَّة أن تصلى معهم ركعتين ، وتدين بأنها تامة لا يكن فى صدرك شك .. ومن خرج على امام من أئمة المسلمين، وقد كان الناس قد اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة،

بأي وجه كان بالرضا أو بالغلبة فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين ، وخالف الآثار عن رسول الله فان مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية »

هل يجود الزمن بمثل الامام أحمد ؟..

ليس على الله بمستحيل أن يوجد فى الأمة الاسلامية مثل الامام أحمد فى علمه وزهده وورعه .. ونحن متفائلون ـ ولن نقف عند صفات أهل زماننا حتى لا يداخلنا اليأس ، ونحن نؤمن أن أفذاذ الرجال نادرون ، وانهم علامات فارقة فى جبين الدنيا .. فاذا نظرنا الى توفر الوسائل لادراك العلم وتهيئته لطالبيه أملنا خيراً ـ وقلنا لم يبق سوى وجود الورع والانقطاع للعلم وهذا قد يهبه الله لبعض عباده ..

واذا نظرنا الى بعض من يشار اليه بالبنان من المنتسبين الى العلم ، وجدنا أنه لم يقرأ حتى تاريخ الامام أحمد .. أو شيئاً عن أحد الأئمة الثلاثة .. وانما أخذ هذا الانتساب بالأمر الهين الذى لا يكلفه جهداً ولا وقتاً دب اليأس الى نفوسنا ..وخاصة وقد

استغرب النـاس فصـاروا يأخـذون التزكية من أعدائهم ، وأولئك يسهلون لهم مهمة هذه التزكية، فيقبلون منهم جزءاً من مليـون جـزء من المـادة ، ويأخذونه على علاته ، ثم يعطونهم ما يمكنهـم من الانتساب الى العلم وهم منه خلو وبراء ..

وحدث ولا حرج عن رجـل يدعى شـيئاً ومعـه مستند وهو لا يعرفه ولا يتقنه .. ومن يعش رجب ير عجباً ..

ان على المسلمين أن يدركوا هـذا التحـول فى تاريخهـم ، وأن يعتمـدوا على الله وحـده ثم على أنفسهم فى رسم قواعد ثقافتهم ، وتقويم مقوماتهم ولديهم كل العناصر والوسائل لذلك ...

ولم أر فى عيـوب النـاس شرأ
كنقص القـادرين على التمام

حنبلي وحنابلة :

تدل هذه الكلمة من أول وهلة ـ على النسبة الى المذهب الحنبلي ، أو الى أتباع أحمد بن حنبـل ـ

لكن طائفة من الناس فهموا منها مدلولا آخر بعيداً عن معناها ، وهو صفة التشدد وعدم التسامح ..!

ولم أجد من أورد تعليلا كافياً مما اطلعت عليه من كتابات عن أحمد سواء منها ما كتبه العرب أو كتبه المستشرقون ..!

ويبدو أن هذا المدلول جاء أول مرة من موقف الامام أحمد فى أمر المحنة والقول بخلق القرآن . ثم توسع به من لا يعرف مذهب الحنابلة فأطلقه على الشدة والقوة والتعصب للرأي ... والا فان جميع من قرأ تاريخ الامام أحمد يدرك أنه شخصية بسيطة متسامحة يقنعها من الحياة اليسير وتسعى جاهدة لجلب الخير للمسلمين ، وتيسير فهم دينهم عليهم .

وشاهد ذلك أن كل من كتب عن حياة أحمد الخاصة ، أو اطلع على مسائله أدرك تسامحه ولينه ، وأيضاً فانه فى حياته لم يسمح بتدوين آرائه ، ولم يسم له مذهباً ، بل انه كان ينهى عن كتابة شيء سوى ما كان من كتابة المسند واذا كان حنبلي

ما في عصر ما اتخذ الشدة له طابعاً وعنواناً فلا يلام أحمد ولا أتباعه في ذلك ، وليرجع من شاء المزيد من الأدلة الى ما دُوّن من كتب الحنابلة ليجد الدليل يتبع كل مسألة ، ويجد اليسر والتوسعة على المسلمين في آراء أئمتهم .

واذا كان المقصود بهذه النسبة على هذا الفهم ، شدة تمسك الحنابلة بالدين ومحاولة أدائه كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلك منقبة يفخر بها الحنابلة ، ويزدادون بها شرفاً وفضلا .

ولكن الحقيقة أن الذين ينسبون الحنابلة الى الشدة أكثرهم لا يدرك حقيقة مذهبهم ، ولا مذاهب الأئمة الثلاثة .

ونجتزىء هنا الموضوع بالاكتفاء بما كتبه الشيخ (محمد أبو زهرة) وبما نقله في كتابه (ابن حنبل) فقد عقد فصلا عنونه ب (دراسة لبعض فقه أحمد ..) استعرض فيه بعض الآراء الفقهية التى تميز بها المذهب الحنبلي عن غيره ، مثل ـ حرية التعاقد ـ والشروط المقترنة

بالعقود ـ وفى نهاية الفصل قال : « وهكذا نرى ذلك الامام الذى جعل آثار السلف أستاذه فتخرج عليها ، واهتدى بهديها ، ولم يخرج عن سننها ، ولم يسلك غير سبيلها ، واقتبست روحه من نورها، انتهى فى العقود وكثير من معاملات الناس الى التوسعة بدل التضييق والى الاباحة دون المنع . وبذلك قام الدليل على أن الناس الذين يزعمون أن الرجوع الى مسالك السلف الصالح فيها تضييق على الناس لم يعرفوا حقيقة هذه الآثار ، وكيف سلك الصحابة ، وكيف عالجوا المشاكل التى عرضت بروح الدين الذى جاء رحمة للناس ، ولم يجيء لاعاقتهم والتضييق عليهم . وهذه عقود تقوم عليها الأسواق العالمية فى العقود قد كان فى فقه أحمد متسع لها ، وقد تبين أنه اهتدى فى هذا بهدى السلف رضي الله عنهم » .

ثم قال فى أول الفصل الذى يليه : « شرحنا فى الفصل السابق كيف كان المذهبالحنبلي فى العقود والشروط أوسع المذاهب الاسلامية رحاباً ،

واخصبها جنـــاباً . والأصـــول التى تأدت بهـــا الى ذلك . . »

ثم قال : «ولقد جاء الحنابلة بعد هؤلاء وأولئك، فقرروا أن باب الاجتهاد بكل طرائقـــه لا يغلق ، وان كانت القوى مختلفـــة ، والمدارك متباينـــة ، فليس لأحد أن يغلق بابه ، وان كان الناس جميعاً ليسوا له أهلا بل كل ومداركه وكل ما تيسر له . وقد يخلو بعض الأقاليم أو بعض المعـــاصرين من المجتهدين ، وليس ذلك لأن الاجتهـــاد محرم وبابه مقفل ، بل لأن المدارك لم تتجه والهمم تقاصرت ، وان كان السبب ميسراً والباب مفتوحا . . .

وان قضية فتح باب الاجتهاد فى المذهب الحنبلي قضية تضافرت عليها أقـــوال المتـــأخرين وأقـــوال المتقدمين حتى لقد قال (ابن عقيل) من متقـــدمى الفقهـــاء فى ذلك المذهب الجليل انه لا يعرف خلافاً فيه بين المتقدمين ، وان أقر المتأخرون أنه قد يوجد عصر يخلو من المجتهـــد المطلق ـ (فابن حمدان)

الحنبلي يقول : « ومنذ زمن طويل عدم المجتهد المطلق ، ومع أنه الآن أيسر منه فى الزمن الأول » .

واذا كان باب الاجتهاد مفتوحاً ، واذا كان العلية من أصحاب أحمد وأتباعه ، قد استنكروا أن يخلو زمن من المجتهدين المطلعين المستقلين ، فان ذلك المذهب يكون ظلا ظليلا لأحرار الفكر من الفقهاء ولذلك كثر فيه العلماء الفطاحل فى كل العصور ..

وبعض العلماء كان اذا اطلع على ما فى ذلك المذهب الأثري من خصوبة وحرية فى البحث ورجوع الى الاثر ، يطرح مذهبه الذى كان يعتنقه ويلجأ الى ذلك المذهب الواسع الرحاب الخصيب الجناب .

فاذا قل عدد معتنقيه من العامة وأشباههم فقد كثر عدد معتنقيه من المجتهدين وأمثالهم ، ومن يتخيرون من المذاهب ولا يتقيدون . وحسبه أن يكون فيه الامامان (ابن تيمية وابن القيم) ليكونا عوضاً عن الكثرة والاعداد ولو كان المعدود أجناساً وأقاليم .

ومن الحق علينا بعد هذا العرض أن نقرر أن هذا المذهب الأثرى مذهب فى عناصر أصـوله كل الأسباب التى تنميه ، وقـد وجـد رجال علوا به وسـاروا به الى الطـريق الأمثـل فأوجـدوا فيه حيـاة تتسـع لاحكام الحـوادث فى كل الأزمنـة والأمكنة .. اهـ »

وبعد هذا اتضح أن هذا الفهم للحنبلية والحنابلة فهم خاطىء لم يبن على أسس سليمة ، وأن هـذا المـذهب مذهب اسـتمد من كلام الله وكلام رسوله واثار السلف الصـالح . وقـد خـدمه العلمـاء المحققون الذين وهبوا أنفسهم للعـلم حتى حفظوه ثم نشروه ..

السعودية ومذهب أحمد :

المتتبع لتـاريخ مذهب أحمـد يدرك أن المتبعين لهذا المذهب هم العلماء والمحققون الذين درسـوا كتاب الله وسنة رسوله وأقـوال صحابته والتابعين لهم باحسان ، ثم اطلعوا على مذاهب الأئمة الأربعة، واختاروا مذهب أحمد عن معرفة وقناعة . ولذلك

كان منهم الأئمة الجهابذة الذين ملئوا الدنيا علماً وخرجوا تلاميذ مجتهدين .. ويكفى أن نثبت الامامين المحققين الشهيرين : الامام أحمد بن تيمية، والامام أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية .. فانهما قد كانا تابعين لمذهب الامام أحمد بن حنبل، ولم يمنعهما ذلك من النظر فى كتاب الله وسنة رسوله ، والاجتهاد فيما بدا لهما ، ولذلك أجمع الناس على امامتهما وصدقهما فى اللهجة ، واخلاصهما للعلم وكثرة الفائدة فى كتبهما ، ومع ذلك فان أتباع مذهب أحمد من العامة انحصروا فى العراق والشام ، ولعل سر ذلك أن المذهب الذى ينتشر هو الذى تدعمه سلطة وتتخذه حكومة منتشرة فى بلاد واسعة .. وظل مذهب أحمد يتوسع ويكثر أتباعه ، لكنه لم يصل الى الكثرة الكاثرة الا حينما هيأ الله تعالى له علماء المملكة العربية السعودية ، فخدموه ويسروه للناس وعلموه لهم ، ونصرهم فى دعوتهم الحكام السعوديون فكثر طلاب العلم وازدهر المذهب حتى علَمَه الجميع ، وانتشر فصار هو

المذهب المعتمد لكل المملكة العربية السعودية الواسعة ، وهو المقرر على الدارسين فى كل المراحل، ومنذ ذلك الحين والمذهب الحنبلي يأخذ فى الانتشار والتوسع بحكم قيمة المملكة العربية السعودية وفضلها على ما سواها لوجود الحرمين فيها ، ولقيمتها التاريخية ولخضوع حكامها لشريعة الله وتحكيمهم لكتاب الله وسنة رسوله على أنفسهم وأولادهم ورعيتهم .. وما زال المذهب الحنبلي هو العمدة فى المحاكم الابتدائية والعليا . وهو الذى يدرسه المعدون للقضاء .. ونستطيع أن نقول ان المذهب قد احتل الصدارة فى الأمة الاسلامية .. لأن المملكة العربية السعودية هى رائدة المسلمين وقبلتهم وأملهم فى الاستمرار بتحكيم الشريعة الاسلامية ، والبعد عن القانون الوضعي . فما دامت انتهجت هذا المذهب فقد كتب له الثبوت والدوام .. فكَثُر علماؤه وكَثُرت كتبه ، وطبعت على كثرتها ووضعت فى متناول كل المسلمين . ودرس المذهب الحنبلي طلاب العلم من كل البلاد الاسلامية وأتقنوه

وذهبوا ينشرونه في بلدانهم . وذلك كاف لانتشاره في العالم .. وهو جدير بذلك لكونه معتمداً على الكتاب والسنّة بدقة وتحر وثيق .. كما ذكرنا في سيرة الامام أحمد بن حنبل رحمه الله . ■■■

مـراجع البحث

١ ـ حلية الأوليـاء وطبقات الاصفياء : لابى نعيم احمد بن عبد الله الاصبهاني .

٢ ـ مناقب أحمد : لأبى الفرج ابن الجوزي .

٣ ـ طبقات الحنابلة : لمحمد بن ابى يعلى .

٤ ـ المدخل الى مذهب الامام احمد بن حنبل : لابن بدران .

٥ ـ لمعة الاعتقاد : للامام الموفق ابن قدامة المقدسى .

٦ ـ كتاب الحيدة : للامام عبد العـزيز بن يحيى بن مسـلم الكتانى المكي .

٧ ـ احمد بن حنبل ـ والمحنة ـ تاليف ولتر باتون ـ ترجمة عبد العزيز عبد الحق .

٨ ـ ابن حنبل ـ حياته وعصره وآراؤه الفقهيـة : محمـد ابو زهرة .

٩ ـ الأئمة الأربعة : د. احمد الشرباصى .

١٠ ـ احمد بن حنبل امام اهل السنة : عبد الحليم الجندي .

١١ ـ الامام الممتحن ـ احمد بن حنبل : البهي الخولى .



الفهرس

صفحة

صفحة



دار عالم الكتب للنشر والتوزيع - الرياض - ص.ب: ٦٤٦٠
هاتف: ٤١٢١٢٣٥ - ٤٦٥١٦٨٩ - تلكس: ٢٠١٤٧٧SJ